الواقع، والفكرة تبقى نظرية وبعيدة ما لم ترتبط أو تحاكى واقعاً معاشاً ، أو بالتالي تكون معالجة مع هذا الواقع سلباً أو إيجاباً..)[١]

وشاب الدعوة عليهم واجبات عظمى تجاه المواطنين بكافة شرائحهم وأشكالهم ، يحتكون بهم في كل مكان ويعاملون في حياتهم اليومية ..لابد للشباب الرسالي أن يكون قائد الفكر والنهضة في الأمة ، بل قائد الإصلاح والمتصدر لمشكلات الناس لا بد لهم أن (يسهموا في تعليم الأميين حتى يقرؤوا، وفي علاج المرضى حتى يصحوا، وفي تقوية المتعثرين حتى ينهضوا، وفي مساعدة المتبطلين حتى يعملوا، وفي معاونة المحتاجين حتى يكتفوا، وفي توعيةالمتخلفين حتى يتطوروا، وفي تذكير العصاة حتى يتوبوا، والأخذ بيد المنحرفين حتى يستقيموا، وكشف المنافقين حتى يختبئوا، ومطاردة المرتشين حتى يرتعدوا، وإنصاف المظلومين حتى ينتعشوا.. وما أكثر الميادين التي تحتاج إلى جهود الشباب، وعزائم الشباب، وحماس الشباب! انزلوا إلى الشعب واختلطوا به، وعيشوا في همومه، وشاركوه متاعبه، اربتوا على أكتاف المهمومين، امسحوا دموع اليتامى، ابتسموا في وجوه البائسين، خففوا الحمل عن كواهل المتعبين،أغيثوا الملهوفين، اجبروا كسر المكسورين، داووا جراح القلوب الحزينة، بموقف عملي، أو بكلمة طيبة، أو ببسمة صادقة) [١]

ويوم يتحقق هذا التلاحم بين الفكرة والشعب تجد الفكرة من ينصرها ويدعمها ويشد من أزرها لأنها صارت محببة إلى القلوب قريبة من الأفئدة .

فارس في ميدان الإحسان

فارس في ميدان الإحسان.. هكذا كانت حياة هذا الإمام العظيم ، والسمة البارزة التي عكست ما في نفسه من إيمان مطلق بهذه القيمة والحب العميق في بذل الخير والبر بالناس.. ما أجمل سيرته الزاهية! فبقدر ما كانت حياته علماً ودرساً وتجديداً ونضالاً وكفاحاً وثورة ونفياً وتشريدا وإصلاحاً، بقدر ما كان متصلاً بميدان الإحسان، يمنحه من جهده وعطائه ووقته تماماً مثل ما يمنح لفكره وعمله الوطني .

ولا أعرف روعة صيغت بها حياة الإمام في ميدان الإحسان والبر ، كتلك التي صاغها أبي تمام في قوله:

تعوّد بسط الكف حتى لـــو أنه * دعاه لقبض..لم تطعه أنامله

ولو لم يكن في كفه غير روحه * لجـــاد بها .. فليتق الله سائله

أعلمت من الفارس المنشود والإمام المقصود؟

إنه ذلك الإمام الفذ، الذي قال فيه موقظ الشرق (جمال الدين الأفغاني) حينما ودعه أهل مصر ساعة نفيه ورحيله : (تركت فيكم محمد عبده، وفيه الكفاية لمصر) هكذا كان (محمد عبده) ، وهكذا كان يقدره (جمال الدين).

لقد كان الاحسان إلى الفقراء والضعفاء من أبرز السمات التي تميزه تماما كما كان له تميزه العلمي ، كان يطعم الجائع ويغيث الملهوف ويلبي الرجاء ويبذل المال ، وكان بارا كريما عطوفا مانحاً، كان يفكر ليل نهار في أنواع البر والخير التي يسديها إلى الناس ويقدمها لهم.

---

[١] الاستيعاب في حياة الدعاة للأستاذ/فتحي يكن .

ويصفه العقاد: (كان (محمد عبده) يحسن إلى صاحب الحاجة وهو في منفاه فقير لا مورد له غير مرتبه من عمله، وكان يحسن إلى أصحاب الحاجة وهم من ذرية أعدائه المفترين عليه، وكان يحسن إلى المنقطعين عن الكسب وهو مريض محتاج إلى ماله القليل لتدبير علاجه ومعيشته في مقامه وسفره، وكان يحسن إليهم وهو في مرض الموت، ويموت وفي ودائع سره صدقات للمستعينين به لم يكن يُطْلِع عليها أحدا من أقرب المقربين إليه)

وهنا يتحدث صديقه وحامل سره وأقرب الناس إليه فيروى شيئاً من أخباره..روى السيد: (رشيد رضا) في كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده) مما علمه من أخباره يوم كان منفياً ببيروت، أن صاحباً له توفي والده وليس عنده ما ينفقه في تشييعه، فأعطاه كل ما في حوزته من مال، وهو مرتبه الذي قبضه يومئذ من المدرسة السلطانية، ولولا أن رجلا في مصر أحسن الإمام إليه مثل ذلك الإحسان قبل نفيه - وفي له بدينه وحوله إليه على مصرف بيروت، لاضطر إلى القرض لينفق بقية الشهر على نفسه وأهله.

وهذه هي صحيفة الصاعقة – كما ينبئ عنها اسمها- ليست من الصحف التي تسخو بالثناء على أحد من الأحياء أو الموتى؛ إذ كانت مرصدة للهجاء الاجتماعي، والنقد اللاذع، صادقاً أو غير صادق، وكان صاحبها يلقب بالحُطيئة الناثر؛ لأنه كان كالحطيئة الشاعر يهجو نفسه وأقرب الناس إليه، ولكنه بكى فيه تلك المروءة السخية التي كان هو من العارفين بجدواها، فرثاه بمقال طويل افتتحه بهذا البيت:

اليوم نامت أعين بك لم تنم * وتسهدت أخرى فعز منامها)

ثم قال:(أما مروءته فليس أقوى دلالة عليها من خروجه قبل أن تخرج الشمس من غمدها وجيبه ممتلئ برقاع امتلأت بحاجات الناس، فلا يرجع إلى داره إلا بعد أن يرجع الدهر عن معاكسة من وضعوا آمالهم فيه ..وكم نظر الله إليه في جوف الليل وهو يمد يده بالحسنات إلى الفقراء والمساكين، ويعول أنفسا ماتت بموته اليوم، ولقد عرفنا نحن أناسا نظروا إليه في جوف الليل يطرق عليهم الأبواب، ويسلمهم ما قدر عليه من عاجل الصدقة، وهو يقول لهم: إنه أمانة من جهات الخير يؤديها إليهم، ولا يعرفهم بنفسه، وكنا نسكن على خط المطرية التي كان مسكنه في ناحيتها فنسمع أخباره هذه مع أصحاب البيوت الكريمة التي فقدت عائليها، فلم يعرفوا أنه هو ذلك الرسول الذي كان يطرق عليهم أبوابهم تحت جنح الظلام إلا بعد أن افتقدوه على أثر وفاته) [1]

وقد عهد أهله إلى تلميذه الحميم السيد (رشيد رضا) أن يرتب أوراقه عند سفره إلى الإسكندرية، فوجد في محافظ الأوراق صررا من النقود مكتوباً على كل منها اسم من يراد إعطاؤه إياها، وسأله – وهو يعد العدة للسفر- عن الشاعر الكاظمي، فذكر له أنه مدين، فأسف لأنه لم يخبره بذلك قبل تصرف أخيه في نفقة السفر؛ لأن الكاظمي أحوج إليها.

---

[1] تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (ت : ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م) - لمحمد رشيد رضا.

(ولو عرفت هذه الصدقات المستورة التي كان يبذلها أو يسعى فيها ويوصلها بيده وأيدٍ خاصته إلى مستحقيها لظهر أنها شغل حياة كاملة، تستغرق العمر ولا تدع فيه فراغاً لعملٍ سواها، وعجب الناس كيف كان يدبر لها وقتها مع تلك الأعمال الجسام التي كان يضطلع بها ولا تقبل الإنابة عنه في أدائها، ومثل هذا الشغل بالإحسان فضل نادر في حياة العظماء الذين كانوا يشغلون بمثل شواغله، ويلقون من المصاعب والعقبات بعض ما كان يلقاه من أعدائه وأعوانه في أداء رسالته)

كانت له معونة شهرية لطائفة من الأدباء يأوون إليه، ومنهم: حافظ، وإمام، والكاظمي، والشنقيطي (العالم اللغوي المشهور)، وهو الذي قال يرثي نفسه، ويذكر معونة الإمام له في غربته المنقطعة دون القادرين على المعونة في عصره:

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد * سوى كتـــب تختان بعدي، أو علمي

وغير الفتى المفتي محمد عبده * صديقي الصدوق الصادق الود والكلم

وكانت توصيته للمطابع ودور النشر من أقوى المشجعات على طبع الكتب القديمة والحديثة، التي يعجز الأدباء عن الاستقلال بطبعها ونشرها، ويستفيدون من تأليفها أو الوقوف على تصحيحها؛ لأنه أجزل الله مثوبته كان يتولى توزيعها على معاهد العلم، ويرسلها باسمه إلى مريديه من سروات الأقاليم وكبار موظفيها.

وقد تسلم من (حافظ) أكثر نسخ قصة (البؤساء) بعد صدور الجزء الأول، ثم أسلم حافظاً من ثمنها ما يكفيه سنوات..وهو الذي قال فيه:

لقد كنت أخشى عادي الموت قبله * فأُصبحت أخشى أن تطول حياتي

ولما حلت الكارثة بالسودان، وعجزت الحكومة عن إنقاذ الموقف والإنفاق على اليتامى والأرامل؛ لنفاد المال، لم يقف الإمام عاجزاً أمام مريض يتألم، أو ذي حاجة منكوب..لقد تركت حملة السودان في هذا البلد جيشاً من الأيتام والأرامل والعاطلين، وجرحى الحرب والمنكوبين، لا عائل لهم، ولا مورد لمعونتهم، وأمسكت الحكومة يدها عن كل معونة لهذا الجيش الزاخر؛ لأنها اعتذرت بنفاد المال في نفقات الحملة، وعجزت الخزانة عن ترتيب المعاشات أو التعويضات بين مصارفها المحدودة؛ فبادر الشيخ (محمد عبده) وكان يومئذ قاضيا بمحكمة الاستئناف.. إلى تأليف هيئة خاصة لحصر ضحايا الحرب وتنظيم المعونة لهم، مما يتبرع به المحسنون، وتسهم به خزانة الأوقاف وغيرها من جهات البر والمساعدة، وجعل قوام اللجنة من رجال القضاء وأهل الثقة من كبار الأغنياء، وحرص على إحاطة هذه الهيئة بالضمانات (الرسمية)؛ لضبط مواردها ومصارفها على نظام الحساب المتبع في دواوين الحكومة، وقامت هذه الهيئة بأمانتها على وجهها الأمثل، ثم تبعتها الحكومة والجماعات الخيرية في طريقها، بعد تمهيدها بهذه الفاتحة التي لم يكن لأولئك المنكوبين – لولاها- من مسألة يلتفت إليها.

أما عن جهوده حينما احترقت مدينة ميت غمر في أوائل عام ١٩٠٢م فيقول العقاد:كان عدد المنكوبين بالحريق أكثر من خمسة آلاف، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم، ولا بين فقيرهم ولا غنيهم، في الحاجة إلى المأوى والطعام؛ فسارع الإمام إلى نشر بيان على الناس يصف فيه الحادث بقوله: (ليس الحادث بذي الخطب اليسير؛ فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئين، منهم الأطفال الذين فقدوا عائليهم،

والتجار والصناع الذين هلكت آلاتهم ورؤوس أموالهم، ويتعذر عليهم أن يبتدئوا الحياة مرة أخرى إلا بمعونة من إخوانهم، وإلا أصبحوا متشردين متلصصين أو سائلين ..حيث بذل الأستاذ الإمام من معونة الجمعية الخيرية الإسلامية ، التي كان يرأسها يومئذ، كل ما تحتمله مواردها، وألف لتعمير البلدة وإغاثة أهلها جماعة كبيرة تمدها بالمال، وتحث الناس على إمدادها به في عواصم البلاد وقراها، وطاف بنفسه على بيوت الأمراء والوجهاء وأصحاب الثروة، يسألهم النجدة في حينها قبل فوات أوانها، واستخدم كل وسيلة على النّظْم في موضوع هذه النكبة، وفي طليعتهم شاعره حافظ إبراهيم الذي نظم فيها قصيدة قال في أولها:

سائلوا الليـــل عنهم والنـــهارا * كيف باتت نساؤهم والعذارى
أين طوفان صاحب الفلك يروى * هذه النار، فهي تشكوا الأوارا

لقد كان الشيخ (محمد عبده) رائد (الخدمة الاجتماعية) في وطنه، قبل أن تعرف في هذا الوطن وفي غيره مصالح الخدمة الاجتماعية، التي سميت بعد ذلك بأسماء الوزارات والدواوين، ولم يكن يقنع بما يسديه من الخير بيده، حتى يكون هذا الخير في مجاله الواسع عملا عاماً للمجتمع، يتعود عليه الناس، ويوطئون له قواعده، ويتعاونون على تنظيمه، ويتكفلون له بضمان البقاء بعدهم لمن يخلفهم عليه..وما من عمل من أعمال الخدمة الاجتماعية تم بعد وفاته إلا كان من مشروعاته التي هيأ لها الأذهان، ومهد لها الطريق، وبدأ فعلا بالاستعداد لتنفيذها، ومنها الجامعة المصرية، التي كان يعنى بها لتقوم على تعليم العلوم وفقاً للمناهج الحديثة، وتسهم في تجديد الحضارة العربية القديمة.

تأمله رحمه الله حين مرِض مرَضَ الوفاة الذي لم يستطع أن يثنيه أو يشغله عن الإعداد لمشروع الجامعة المصرية والبحث في وسائل بنائها، وضمان الموارد التي ينفق منها عليها، حيث خاطب وزارة المالية في بيع عشرة آلاف من ملك الحكومة ، ويسجل وقفها لعملية البناء..وهكذا في كل المجالات الخيرية المتنوعة نجد الإمام سباقاً إلى المساهمة فيها، وإيجاد الوسيلة المناسبة لإتمامها، والحلول اللازمة لما تعثر منها، كان رحمه الله يحمل هموم الناس، ويشعر بآلامهم، ويفني ذاته في خدمتهم، وهي أولى سمات القادة العظماء الذين أثروا في شعوبهم؛ فصاروا فيها قدوة ورموزاً يستضيء الناس بمواقفهم وأعمالهم.. لقد كان محمد عبده خيراً على الناس في يده، كما كان خيراً عليهم في فكره وعقله.)[1]

من هم العظماء ؟!

العظماء اليوم في مقاييس الناس يختلفون عن العظماء في مقاييس القدماء..كان العظماء قديماً هم الأبطال الذين يهبون حياتهم لرفعة الأمة ومكانتها وعزتها..كانوا هم أولائك الذين يفنون أعمارهم نضالاً من أجل الناس وقضاء مصالحهم والدفاع عن قضاياهم ..كانوا هم أولائك الذين يقودون حملة الإصلاح وتحرير الشعوب من الغاصبين المحتلين..

أما اليوم فإن ميزان العبقرية قد اختل ، وانحرف معه مقياس العظمة في تقديراته واختياراته وانتقاءاته..لقد صار العظماء اليوم هم المطربون والراقصون والطبالون

---

[1] راجع المزيد من أخبار الامام في كتاب محمد عبده – عباس العقاد

والملحدون وكل منحرف في توجهه كافر بأمته وتراثها ودينها وقيمها..لقد كان خدام الشعوب لهم المكانة الكبيرة في نفوس الرعية قبل الملوك والأمراء ..لأنهم كانوا الأقرب إليهم حينما تبنوا مشكلاتهم وهموم حياتهم..وهذا ما حدث مع (باستير)؟
فمن هو باستير ؟
منذ زمن كبير نشرت جريدة (الماتين) الفرنسية استفتاء لقرائها عن أعظم رجل خدم فرنسا ، فتوالت الخطابات من كل ربوع فرنسا ..وكان كل حزب يتسابق مؤيدوه في التصويت حتى يكون عظيمهم الذي اختاروه له غلبة الأصوات في هذا السباق ، وكان من المنتظر أن يكون (نابليون) هو الفائز بأكثرية الأصوات ، لكن النتيجة كانت على غير المتوقع وعلى عكس المنتظر ..فقد جاء باستير وهو الشخص المغمور الذي لا يسمع به الكثيرون ، في المركز الأول في التصويب في الاستفتاء..فماذا فعل هذا الباستير حتى يتفوق على نابليون ، ويأخذ من نسبة الأصوات أكثر مما أخذ.؟!
لم يكن باستير من النبلاء أو الفرسان، أو من أفراد الأسر الشريفة العريقة ، إنما كان كما قيل : رجل وضيع الأصل ، ولكنه كان مثالا لأولئك الذين رفعهم العلم لمصاف القادة والزعماء وكبراء المجتمع ..ولد (لويس باستير) في ٢٧ ديسمبر ١٨٢٢ لعائلة فقيرة تعمل في دباغة جلود الحيوانات في مدينة دول في فرنسا،كان الابن الثالث لأبيه (جان جوزيف باستير) وأمه (جان إتيان روكي)، عمل أبوه رقيبا في جيش نابليون ثم امتهن الدباغة، وكان لويس باستير طالبا متوسط المستوى في سنواته الدراسية الأولى، ولكن برز نبوغه في الرسم والتصوير، حصل على درجة بكالوريوس آداب سنة ١٨٤٠ ودرجة بكالوريوس علوم سنة ١٨٤٢م من مدرسة الأساتذة العليا، وحصل على الدكتوراه سنة ١٨٤٧م أصبح باستير أستاذ كيمياء في جامعة (ستراسبورغ) .
أراد له والده أن يكون مثقفاً فأوفده إلى باريس بعد أن أنهى دراسته الإعدادية في (أربوي) كي يتابع تحصيله في دار المعلمين لكن المرض أقعده عن متابعة الدراسة ، وبعد أن تعافي أرسله والده إلى الكلية الملكية التي تخرج منها عام ١٨٤٠ وحصل على ليسانس في الآداب وكان يدرس الرياضيات في الوقت ذاته وحصل بعد عامين على بكالوريس في العلوم التي أولع بها رغم عدم تفوقّه في الكيمياء التي صمم أن يكون ذا شأن فيها.
وفي عام ١٨٤٦ حصل باستور على شهادة الأستاذية في العلوم الفيزيائية، وألحّ عليه بعد ذلك أستاذه (بالار) أن يبقى في باريس لتحضير شهادة الدكتوراه، وفي عام ١٨٤٧ حصل على شهادة الدكتوراه في الفيزياء، وكان موضوعها يتعلق بدراسة الاستقطاب الدوراني في السوائل، وفي عام ١٨٤٨ قدّم باستور إلى المجمع العلمي الفرنسي أول أبحاثه حيث عرف الميكروب وتوصل إلى مصل لمرض الكلب ، وعالج كروم فرنسا من وباء كاد يفتك بها وصنع لقاحا للجمرة الخبيثة ، وابتكر عملية بسترة اللبن وغير ذلك من الاختراعات النافعة والهامة في حياة البشر والتي أدرك الفرنسيون أن فائدتها لهم أجل وأكبر من معارك نابليون التي خاضها ليرفع لواء فرنسا ويعزز سمعتها الحربية ، ومن هذا التميز والانجاز كان باستور على موعد مع

الشعب الذي أنصفه ورفع قدره فوق الزعماء والقادة حينما منحوه أغلبية الأصوات في استفتاء الماتين.

(إن العظيم يجب أن يكون هو الرجل الذي كسب للأمة حقوقًا لم تكن لها من قبل، هو الذي نظم للبلاد طرق الري والصرف ورفع مستوى الصحة، ولسنا نعين شخص هذا العظيم الآن، وإنما يجب أن نقيسه بمقدار الفائدة التي عادت من وجوده على البلاد، فإذا قيل لك: إن هذا الرجل أو ذاك عظيم فاسأل ماذا فعل للبلاد وما هو الربح الحقيقي الذي جنته منه؟ ولو سئلت أنا هذا السؤال لأجبت بأن العظيم في مصر هو الذي ينجي الفلاحين من البلهارسيا والإنكلستوما، وهو الذي يعمم التعليم الحقيقي لا تعليم القرون الوسطى، وهو الذي يخترع لنا طريقة لعمل الأسمدة الكيمياوية..فبلادنا مثلًا مفتقرة إلى الصناعة، نبيع قطننا كل عام بأبخس الأثمان، ثم نعود فنشتري بعضه بأرفع الأثمان، فالعظيم حق العظمة هو ذلك الذي يستطيع أن يعلم الفلاح كيفية غزل القطن ونسجه ويوجد في البلاد حركة صناعية تضمن لنا حياتنا الاقتصادية.)[1]

في حياتنا موازين غريبة مختلة ..فالكثيرون يمجدون القادة المستعمرين والطغاة المحتلين الذين أذاقوا البشر خرابا ودماراً وإزهاقاً للأرواح كهتلر ونابليون وهولاكو والاسكندر ..!لقد أضاعوا ملايين البشر ، وخربوا البلاد وحرقوا المدن ، فهل هؤلاء يستحقون المدح منا أو أي نوع من التبجيل والتقدير..؟! هل يستحقون منا أن نصفهم بالعظماء ؟

في تقديري أن العظماء الحقيقيين هم العلماء والأطباء والخبراء وكل من خدم البشرية ، هؤلاء هم أولى الناس بتقدير الأمم..كما لا يمكن أبداً أن نتنكر للعباقرة المعروفين والمبدعين أمثال (فلمنج وأديسون وليسير وباتنجوويلسونجريتباش) ونتناسى جهودهم ونجردهم من قيمتهم الحقيقية ونعلي عليهم من لا يتقنون إلا التعالي على البشر والتسلط على حياتهم.!

العظماء الحقيقيون هم من يكافحون الصعاب من أجل تحسين ظروف البشرية ويعايشون الألم والصراع كي تنجح جهودهم ويتحقق أملهم في إنقاذ الناس ، انظر لواحد من هؤلاء ..إنه عظيم حقاً بما قدم وبذل للفقراء والمحتاجين من بني وطنه ، إنه الأكاديمي الهندي (أشيوتا سامنتا) الذي ولد في (أوديشا) أفقر مناطق الهند ، نشأ يتيماً فقيراً يكابد شظف العيش ومرارة البؤس لكنه استطاع أن يحول حياته وحياة الآلاف من الأطفال والفقراء نحو الأفضل، لقد أحاطت به ظروف قاسية ونشأ عصامياً ، واستطاع أن يحصل على تعليم أكاديمي وواصل عطاءاته الإنسانية ، لقد كان يسعى ويأمل إلى خلق عالم خال من الفقر والجوع والمرض والجهل ..احتضن المعدمين من أبناء وطنه الفقراء ، وعائلاته المعدمة المرهقة ، وحاول أن يوفر لهم فرص حياة متكافئة وشريفة.

وفي البحرين كان التكريم الإسلامي لهذا الرجل الذي أراد أن يعيش لغيره ، فوهب حياته لمن حوله ، واستحق (جائزة عيسى لخدمة الإنسانية) واستمع إليه الحضور في حفل التكريم وهو يروي سيرته ومسيرته ، فكان مما قال: (كانت أول خطوة لي على مسار الدرب الطويل، بين عامي ١٩٩٢م – ١٩٩٣م، حين قمتُ بتأسيس معهد

---

[1] في الأدب والحياة – سلامة موسى -بتصرف

كالينغا للعلوم الاجتماعية، الذي بدأ بـ١٢٥ طفلاً من أطفال أفقر القبائل، بدأنا في مسكن مستأجر، يشتمل على غرفتين، وباستثمار لم يزد على ٥٠٠٠ روبية (١٠٠ دولار تقريبًا)، ادخرتها مما كنت أتقاضاه من راتب متواضع نظير عملي الأكاديمي) إن معهده اليوم يتعهد بتعليم أكثر من ٢٥٠٠٠ طالب، من أبناء القبائل الهندية الأشد فقرًا؛ يتعهد تعليمهم ويتولى أمرهم من رياض الأطفال، ويوفر لهم التعليم المهني والتدريب، ويزودهم بالمهارات الحياتية، ويوفر لهم السكن المجاني والمأكل والملبس والرعاية الصحية.

(وتؤوي مؤسسته (معهد كالينغا للعلوم الاجتماعية) أكثر من ٢٥ ألف طالب وطالبة من فقراء وأيتام الهند والأطفال المهملين والمحرومين المهمشين، فضلا عن الأثرياء القادرين، مما حقق تفاعلاً واندماجا بين طبقات المجتمع المختلفة وقرب بين أبناء المجتمع الواحد. وبموازاة ذلك، شيد الدكتور أشيوتا سامنتا صرحا تعليميا هوعبارة عن مدينة جامعية شاسعة، تستقبل آلاف الطلاب، يتلقون في معاهدها وكلياتها التعليم والتدريب في مختلف التخصصات.

التعليم بالنسبة إليه حجر الزاوية في الخروج من كل المعضلات، يقول: (لقد عقدت العزم منذ فترة طويلة على مكافحة الفقر في المجتمعات القبلية الفقيرة في الدولة، مؤمنًا بأثر التعليم والتدريب في تغير حياة الملايين، فقد شهدت تحولاً كبيرًا في حياتي بسبب ما توفر لي من فرص للتعلم، فأردت أن أمنح فرص متكافئة للأطفال الفقراء للحصول على التعليم والتدريب وعلى المهارات اللازمة لتنمية حياتهم على أكثر من صعيد، وتمكينهم من كسب رزقهم)

يضيف: سامنتا: (في طفولتي، كافحت من أجل لقمة العيش، وما زلت أكافح لإطعام الأفواه الجائعة، فالفقر والجوع ما زالا يكتسحان أطفال القبائل) وبإصرار يقول: (لابد لي من أن أواصل المشوار والنضال من أجل الوصول إلى كل طفل محروم في العالم، حتى يتم القضاء على الفقر كليًا ومحوه عن سطح الأرض).

وحين يتحدث سامنتا عن الهند، خزان التنوع البشري، فإن رسالته الإنسانية لا تستثني أحدًا، يقول: (إن رؤيتي تتمثل بالوصول لمجتمع بشري غني فكريًا، لا جائع فيه، يتمتع فيه الناس بالسلام والرخاء بغض النظر عن طائفتهم أو عقيدتهم أو جنسهم أو عرقهم أو آيديولوجياتهم).

حين ننظر إلى ما يحققه البشر العاديون من مختلف الأعراق والأديان والألوان في سجل العطاء الإنساني، نكتشف أننا ما زلنا في بداية الطريق.) [١]

وتحت عنوان (لماذا أحب أديسون ؟) كتب الأستاذ (فهد الأحمدي): (لا يمكننا الحكم على الأفراد من خلال المظهر أو المخبر ..بل من خلال القيمة النوعية والإضافة الإيجابية التي قدموها إلينا.. لا يمكننا الحكم عليهم من خلال الثروة والمنصب لأن القيمة الحقيقية للإنسان لا يمكن تمييزها قبل أن يخسر (الثروة والمنصب) ويصبح في حكم التاريخ.. لهذا السبب أحترم علماء ومخترعين وأطباء خدموا الناس وأسعدوا البشرية وأنقذوا حياة الملايين، ولنفس السبب أكره فاتحين وطغاة من شاكلة نابليون

---

[١] من مقال لميرزا الخويلدي- جريدة الشرق الأوسط - عدد ١٣٣٥٧

وهولاكو وهتلر والاسكندر الأكبر لأنهم على العكس تماما قتلوا الملايين، وشردوا الملايين، وسببوا البؤس للملايين.)[٢]

إن أحد هؤلاء العلماء وهب لقومه ما يحلمون به وأعطاهم أمنية طالما عاشوا لها دهرا كبيرا ، هذا الرجل هو اليهودي (حاييم عيزرا وايزمان) الذي وهب علمه لسعادة قومه اليهود ..حين جعل المكافأة على علمه أن يحصل على وطن لقومه المشردين.. أتدرى ماذا قدم؟

لقد كان الرجل خيراً على قومه، واستطاع بعلمه أن يخدمهم، ويحقق حلمهم المنشود الذي يهيمون به ويرجون حصوله، لقد جعل من العلم وسيلة لقيام دولتهم (إسرائيل) متغاضياً عن أحلامه الشخصية، ومآربه الذاتية، وطموحاته النفسية..(كان يعمل أستاذا للكيمياء العضوية في جامعة (مانشستر) بانجلترا، وفي سنة ١٩١٦م اخترع طريقة لصناعة الأسيتون من دقيق الذرة، فأنقذ المجهود الحربي للحلفاء الذين كانوا حينذاك في حاجة ماسة لكميات كبيرة من ذلك السائل العجيب الذي يستخدمونه في إذابة (النتروجلسرين) وقطن البارود لصناعة مادة الكورادايت، المفرقعة الدافعة، التي يحشون بها الرصاص وقنابل المدافع..وهنا كان لابد من مكافأته.. والتي حددها هو ولم تحدد له..!

أبى (وايزمان) أن يقبل مكافأة مادية ليشترى له ضيعة أو يبنى (فيلا) ينقشها بالزخارف والديكور المبهر ، رفض ذلك كله وأعرض عن حظوظ النفس لأن إيمانه بباطل قومه كان عنده بمثابة العقيدة التي يلتزم بها ويضحى بكل الماديات في سبيل العمل لها.

وأصر في النهاية على أن تكون مكافأته مجرد وعد من حكومة بريطانيا العظمى لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، دون المساس بحقوق السكان الأصليين من غير اليهود ، مجرد وعد وكانت البلية على العرب والمسلمين..هذا العالم اليهودي خدم ملته وعشيرته بما رأيت، لقد ذكر قومه ولم يذكر نفسه، وخدم عقيدته ولم يخدم شهوته، وتوسل بعبقريته العلمية ليجمع شتات أمته..) [١]

ولقد رسم الإسلام للحكام والملوك طريق العظمة الحقيقية حينما حثهم على العدل بين الناس ، وحكمهم بالإنصاف والقسط وجعل من الحكم أمانة في أعناقهم يسألون عنه أمام الله سبحانهحيث قال تعالى: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)(المائدة:٤٢)

وقال : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)(النساء :٥٨)

وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ..) (النحل :٩٠)٩٠

وروى مسلم وغيره: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا.)

---

[٢] جريدة الرياض من مقال لفهد الأحمدي عدد ١٦٩٢٢

[١] مستقبل الإسلام خارج أرضه: للشيخ الغزالي.

والمقسطين أي العادلين في حكمهم سواء كانوا حكاماً أو قضاة ، وقد يدخل في معنى المقسطين من ولي على مال المسلمين ولم يأخذ أكثر من حقه فعدل ..ونلاحظ عظم هذا الجزاء، حيث يُجعل هؤلاء على منابر من نور فيالها من منزلةٍ عظيمة وكبيرة..!
ويخبرنا ﷺ عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر أولهم إمام عادل ، وقال عن الإمارة أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة ، إلا من عدل.؟ وأخبر أن من ولي من أمور المسلمين شيئاً فاحتجب دون خلتهم وحاجتهم وفقرهم وفاقتهم ، احتجب الله عنه يوم القيامة دون خلته وحاجته وفاقته وفقره، وبين كذلك أن فاقد العدل لا يدخل الجنة وأنها محرمة عليه حيث قال:
(مَا مِنْ إِمَامٍ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْخَلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ إِلَّا أَغْلَقَ اللَّهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِهِ وَحَاجَتِهِ وَمَسْكَنَتِهِ فَجَعَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلًا عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ) صححه الالباني
وقال: (صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي ، إمام ظلوم غشوم ، و كل غال مارق) رواه الطبراني
ولقد ضرب ديننا أروع المثل في العدالة والإنصاف بين الناس لتكون برهان العظمة لهذا الدين وعنوان العظمة للقائمين عليه ، ففي فتح مكة سرقت امرأة، وأراد الرسول ﷺ أن يقيم عليها الحدَّ ويقطع يدها، فذهب أهلها إلى أسامة بن زيد وطلبوا منه أن يشفع لها عند رسول الله ﷺ حتى لا يقطع يدها، وكان ﷺ يحب أسامة حبًّا شديدًا.. فلما تشفع أسامة لتلك المرأة تغير وجه الرسول ﷺ، وقال له: (أتشفع في حد من حدود الله؟!). ثم قام النبي ﷺ فخطب في الناس، وقال: (فإنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله (أداة قسم)، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها) رواه البخاري
وكان عمر بن الخطاب ﷺ ذات ليلة على عادته يتفقد الناس، فمر برحبه من رحاب المدينة فإذا ببيت شعر ينبعث منه أنين امراه وعلى بابه رجل قاعد فسلم عليه عمر وسأله من هو؟ فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين، فقال عمر: ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت؟ قال الرجل، وهو لا يدري أنه عمر أمير المؤمنين: انطلق (رحمك الله) لحاجتك ولا تسأل عما لا يعنيك، فألح عليه عمر يريد معرفة الأمر فأجابه: امرأة تمخض ـ أي على وشك الولادة ـ وليس عندها أحد، فعاد عمر إلى منزله وقال لامرأته أم كلثوم بنت علي ﷺ: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ قالت: وما هو؟ فأخبرها الخبر وأمرها أن تأخذ معها ما يحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب وما تحتاج إليه المرأة من دهن، وأن تأخذ معها قدرا وتضع فيه حبوبا وسمنا..فجاءت به فحمل القدر ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت، وقال لامرأته ادخلي إلى المرأة وجلس هو مع الرجل وأوقد النار وطبخ ما جاء به والرجل جالس لا يعلم من هو!وولدت المرأة فقالت زوجة عمر من داخل البيت: بشر يا أمير المؤمنين صاحبك بغلام! فلما سمع الأعرابي ذلك علم أنه مع أمير المؤمنين، فكأنه هابه، فأخذ يبتعد عنه! وعمر يقول له: مكانك كما أنت، ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه لتطعم المرأة، فلما أكلت ناول الرجل القدر وقال: كل ويحك فإنك سهرت الليل كله...ثم خرجت زوجته وقال للرجل: إذا كان غدا فأتنا نأمر لك بما يصلحك، فلما أصبح أتاه ففرض لابنه في الذرية وأعطاه... !

يقول الدكتور السباعي:
(أما إني لا اعلم في كل ماقرأت من تاريخ العظماء، أروع ولا أنبل ولا أسمى إنسانية من مثل هذه الحادثة) [١]

خدام لا حكام !

هل تعلم أن الغربيين ما تعلموا فكرة الحرية وسيادة الشعوب ومعاني الديمقراطية إلا من أمتنا ؟! قد يكون هذا كلاماً غريباً، ولكنه الحقيقة ، فقد (جاؤوا إلى بلاد الشام في الحروب الصليبية ورأوا من قبل في ممالك الخلافة الأندلسية أن الشعوب تراقب حكامها ، وأن الحكام لا تخضع لإشراف احد غير شعبها.. وقارن الملوك الغربيون بين تحرر ملوك العرب والمسلمين من سلطان أي طبقه إلا مجموع الشعب..وبين خضوعهم هم لسلطان روما وتخويفهم بالحرمان والطرد بين ساعة وأخرى إذا لم يقدموا خضوعهم لملك روما الديني !فثاروا بعد رجوعهم الى بلادهم حتى تحرروا ثم ثارت شعوبهم عليهم حتى تحررت.

وكانت الثورة الفرنسية بعد ذلك وأعلنت مبادئها التي لم تكن أكثر مما أعلنته حضارتنا قبل اثني عشر قرنا!..لقد اتصلوا بحضارتنا في القرون الوسطى عن طريق بلاد الشام وعن طريق الأندلس وكانوا قبل اتصالهم بنا لا يعرفون ثوره ملك على رئيس دين ولا انتفاضه شعب على ملك ولا يجدون ان من حقهم ان يحاسبوا حاكما او ينصروا مظلوما..وكانوا حين يختلف بعضهم مع بعض في العقيدة والمذهب يذبح بعضهم بعضا كما يذبح الجزار غنمه! فلما اتصلوا بنا بدأت نهضتهم وثورتهم ثم كان تحررهم..فهل ينكر بعد هذا أثر حضارتنا في تحرير العالم وإنقاذ الشعوب؟.)[١]

لقد جاء الإسلام لخلاص البشرية من الطغاة وقهرهم.. فقد كان العالم قبل مجيئه يئن بالظلم والجور وتعاني الأوطان المستضعفة من صولة المتكبرين ، الذين أذاقوا شعوبها صنوف الأذى والهوان ، كانت الفرس والروم يتربعان على عرش العالم القديم، فملؤوا الدنيا بالمظالم التي يحار الفكر في وصفها ، وكان الأثرياء فيهم يسومون الناس شر العذاب ، يريقون الدماء ويستعبدون الضعفاء ، ويتصورون أنفسهم أنهم جنس أسما من غيرهم وأنهم شريحة مقدسة خلقت لتظلم وتقتل وتجور وتقهر ، حتى ضجت الأرض وشكت إلى ربها من هول الانسان في حق أخيه الانسان.

ولقد كان من وجوه العظمة في شخصية محمد ﷺ أن قدم للدنيا أناساً بهروا العالم وأعجزوا الدنيا في مناقبهم وما قدموه للإنسانية من قيم ومواقف ومثل عالية في العدل والرحمة والاخاء والمساواة..لقد تربوا على يديه ليربي بهم الدنيا ، ويعلم بهم الأمم..!

استتطاع أن يصيغ من فكرة الاسلام أشخاصا يمشون على الأرض وطبع من المصحف كما قيل عشرات من النسخ ثم مئات وألوف، ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق، إنما طبعها بالنور على صحائف القلوب، وأطلقها تعامل الناس، وتأخذ منهم وتعطي وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام ..

وما أروع القائل:

---

[١] من روائع حضارتنا للدكتور السباعي
[١] آثار الحضارة الإسلامية في التاريخ- د.مصطفي السباعي

خَلَّفْتَ جِيلاً مِنَ الأَصْحَابِ سِيرَتُهُمْ ** تَضُوعُ بَيْنَ الوَرَى رَوْحًا وَرَيْحَانَا
كَانَتْ فُتُوحُهُمُو بِرًّا وَمَرْحَمَةً **كَانَتْ سِيَاسَتُهُمْ عَدْلاً وَإِحْسَانَا
لَمْ يَعْرِفُوا الدِّينَ أَوْرَادًا وَمِسْبَحَةً** بَلْ أَشْبَعُوا الدِّينَ مِحْرَابًا وَمَيْدَانَا

ويقف المتأمل حائراً أمام هذا الإعجاز ويسائل نفسه :كيف استطاع هذا النبي العظيم أن يحول رعاة الغنم إلى قادة للأمم ..؟! كيف استطاع أن يحول هذا البدوي إلى قائد عظيم يخطط ويسوس ويهدي ويرشد..؟! كيف استطاع أن ينتشله من أوزار الجاهلية وأخلاقها الفاجرة ، إلى عالم السمو والفضيلة..؟!

ولعل من أكرم وأجل ما علمهم إياه أن غرس في قلوبهم حب الناس وبر الخلائق.. وكيف لا ..وقد أُرسل رحمة للعالمين؟ وكيف لا وقد جاء لخلاص المعذبين والمضطهدين والضعفاء والمظلومين؟ ..لقد وقف أحد رجاله أمام (رستم) قائد الفرس حينما سأله:ما الذي جاء بكم؟! :فقال له: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ؛ ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ؛ ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام..

لقد علم الرسول الكريم رجاله أن يكونوا رحماء بالناس في زمن فقد معاني العطف والرحمة ، ولم يعد يعرف غير القهر والقسوة والبطش ، فجعل من مواطني الصحراء القاسية مثلا رحيمة راقية ، وعلمهم أن يساعدوا الفقراء ويعطفوا على المساكين ويقضوا حاجة المحتاجين ويساندوا العاجزين والمكروبين ..! علمهم هذا بعد أن أخرج من قلوبهم أنانية النفس وحظوظها ، وشرك الجاهلية وزورها، فكان الواحد منهم يُقدِم ما استطاع من نفسه وماله من أجل الآخرين ، وكان أحدهم لا يقر له منام أو يستقر على جنبه هانئاً وله جار مهموم أو صاحب مكروب أو قريب محتاج.

لقد خدموا الإنسان، وعلموا الدنيا حب البشر، وكان قادتهم وأمراءاهم في مقدمة هذا السباق الإنساني، فرأوا أنفسهم خداماً قبل أن يكونوا حكاماً ، فلم يكن لهم كبرياء الملك، أو عنجهية السلطان، أو خيلاء المنصب، كما كان في فارس والروم.. وكما كان الحكام يصنعون لأنفسهم من هيبة وغرور.

فهذا (أبو بكر الصديق) ثاني اثنين إذ هما في الغار، كان معروفا بالتجارة، وبعث النبي ﷺ وعنده أربعون ألف درهم ، فكان يعتق منها ويقوي المسلمين ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم ، ثم كان يفعل ما كان يفعل بمكة ..

وكان عند العرب الأوائل عيب على المرأة أن تحلب الشاة، وكانوا يستقبحون ذلك منها ، وكان الرجل من يقوم بذلك ، وإذا غاب الرجل الزوج أو الأب يحلب لهم الجار، فكان (أبو بكر الصديق) يحلب لأهل الحي أغنامهم، فلما استخلف وصار أمير المؤمنين ،قالت جارية منهم -يعني من نساء الحي- بعد أن صار أبو بكر خليفة: الآن لا يحلبها.. لقد صار قائد الدولة وخليفة المسلمين من يسير الجيوش ويتحمل المسئوليات ، فهل يلتفت إلى غنمنا ويحلبها؟ الآن لا يحلبها، فسمع بذلك أبو بكر ﷺ فقال: بلى، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله.!

وكان عمر وما أدراك ما عمر ..يؤتى إليه في زمن (الرمادة) بخبز قد ثرد بالزيت ، إلى أن نحروا يوما من الأيام جزورا فأطعمها الناس ، وغرفوا له طيبها فأتي به ،

فإذا فدر من سنام ومن كبد ، فقال : أنى هذا ؟ ، قال : يا أمير المؤمنين ، من الجزور التي نحرنا اليوم ، قال : (بخ بخ ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها ، ارفع هذه الجفنة ، هات لنا غير هذا الطعام) ، قال : فأتي بخبز وزيت ، قال : فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز ، ثم قال : (ويحك يا يرفأ ! احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثمغ ، فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام وأحسبهم مقفرين ، فضعها بين أيديهم)[1]

ومَن مِن الحكام في زماننا من يفعل مثل ما فعل عمر ! في هذا الموقف ..يمنع أطيب الطعام عن نفسه ليفدي به رعيته ، ويعتبر نفسه بئس الوالي إن قبل بهذا ..وفي حياتنا اليوم حكام ينهبون ثروات شعوبهم بلاشبع أو قناعة ..ينام أحدهم منتفخ البطن من زحمة الطعام بينما الفقراء في وطنه تفنيهم الأمراض ويسحقهم الجوع..!

ما أروعك يا عمر وما أجل مواقفك !!لم تعرف الدنيا حاكما في عدلك وحبك لرعيتك وإنصافك للمظلومين وشفقتك على الفقراء والمساكين..حتى سار بك الحال أن تحرم نفسك ليهنأ غيرك ، فلا ينسى التاريخ هذا اليوم الذي رآك فيه (طلحة) ﷺوأنت تدخل أحد البيوت ليلاً ، فلما تركته دخله ليتقصى الأمر، فإذا فيه عجوز عمياء مقعدة، فسألها: ما يصنع هذا الرجل عندك؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى ! فقال طلحة لنفسه: ثكلتك أمك يا طلحة ! عثرات عمر تتبع؟!

لقد كان إحساسه العميق بالمسؤولية يؤرق جفونه فلا تعرف النوم والقرار، وكان يعبر عن ذلك بقوله :

(لو مات جدي بشط الفرات لخشيت أن يحاسبني الله عنها ؟)

وقال: (لو أن بغلة بالعراق عثرت لظننت أن الله يسألني: لم لم تمهد لها الطريق)

وكان عثمان ﷺ أجود الناس وأكرمهم ، وما كانت ولايته للمسلمين إلا لصدارته وما كانت هذه الصدارة إلا لتاريخه الحافل والمشرف في الإسلام والمسلمين ، فهو الذي أفنى ماله ليقيم دولة الله وينصر رسوله ﷺ.

ومن آثار علي ﷺ أن جاءه يوماً أمينه ومؤذنه ابن النباح، فقال: يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء..فقال: الله أكبر..ثم قام متوكئًا على ابن النباح، حتى قام إلى بيت المال فقال: هذا جناي خياره فيه كل جانٍ يده إلي فيه، يا ابن النباح علَيَّ بأشياخ الكوفة، قال: فنادى في الناس، فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين، وهو يقول: يا صفراء، ويا بيضاء غريّ غيري، ها، ها، حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضحه، وصلَّى فيه ركعتين.

ودخل مرة بيت المال فرأى فيه شيئًا، فقال: لا أرى هذا هنا وبالناس حاجة إليه، فأمر به فقسم، وأمر بالبيت فكنس، ونضح فصلَّى فيه، أو قال فيه، يعني: نام.

وكان ﷺ يحسن إلى الفقراء على الدوام في الخفاء ، حتى لا يعلم بذلك أحد ، فلما توفي خرجت النساء الفقيرات باكيات يرددن :من ينفق علينا بعدك يا علي..!

وروي أنه كان يسقي بيده النخل لقوم من يهود المدينة حتى مجلت يداه، ويتصدق بالأجرة، ويشد على بطنه حجراً.

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد

وقال الشعبي :كان أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال: لا لسائل قط.
وقال عنه معاوية بن أبي سفيان ـ لمحفن بن أبي محفن الضبي ، لما قال له: جئتك من عند أبخل الناس قال :ويحك! كيف تقول: إنه أبخل الناس وهو الذي لو ملك بيتاً من تبر – ذهب ـ وبيتاً من تبن، لأنفد تبره قبل تبنه؟!!
ويُحكى أن ابنة (عمر بن عبد العزيز) دخلت علية تبكى وكانت طفلة صغيرة آنذاك، وكان يوم عيد للمسلمين فسألها ماذا يبكيكي ؟ قالت : كل الأطفال يرتدون ثياباً جديدة وأنا ابنة أمير المؤمنين أرتدي ثوبا قديما...فتأثر عمر لبكائها وذهب إلى خازن بيت المال وقال له : أتأذن لي أن أصرف راتبي عن الشهر القادم..؟فقال له الخازن: ولمَ يا أمير المؤمنين ؟ فحكى له عمر ..فقال له الخازن لامانع عندي يا أمير المؤمنينو لكن بشرط فقال عمر و ما هو هذا الشرط ؟ فقال الخازن أن تضمن لي أن تبقى حياً حتى الشهر القادم لتعمل بالأجر الذي تريد صرفه مسبقاً، فتركه عمر وعاد إلى بيته فسأله أبناؤه ماذا فعلت يا أبانا ؟
قال : أتصبرون وندخل جميعا الجنة أم لا تصبرون ويدخل أباكم النار ؟
قالوا نصبر يا أبانا..!
هؤلاء هم القادة الأول في تاريخ الإسلام، وهذه سيرتهم في حكمهم العادل الذي كان أحدوثة الأيام وأعجوبة الزمان.. واسمع لأذناب الغرب وهم يطنطنون بالحديث عن عطف وإنسانية (جورج واشنطن) محرر أمريكا ويروون أنه مر ذات يوم في بعض شوارع المدينة التي سميت باسمه فيما بعد ، فرأى جنوداً يتجمعون حول حجر يريدون أن يرفعوه ولكنهم يعجزون ، وكان هناك ضابط يقف أمام هؤلاء الجنود يأمرهم ولا يساعدهم ، فوقف واشنطن وقال له: أيها الضابط ساعدهم على حمله فرفض الضابط وقال : إني لا أتنازل إلى هذا ، فما كان من واشنطن إلا أن ألقى رداءه وساعدهم حتى استطاعوا رفع الحجر وحمله ، ثم قال لهم كلما احتجتم إلى مساعدة فاسألوا عن دار واشنطن ..
إنه (جورج واشنطن) أبو الحرية الأمريكية المزعومة الذي كان يملك ثلاثمائة عبد وجارية في مزرعته الخاصة ، ولم يحرر منهم واحداً قط !
وأمام من يهللون لهذا الموقف.. فإن الحضارة الغربية التي تئن الدنيا من ويلاتها ، لا يمكن أن تماثل فيما قدمت في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ما قدمه تراثنا وحضارتنا ورموزنا الذين كان الحكام فيهم خداماً لرعيتهم يسهرون ليلهم ونهارهم على راحتهم ومعاشهم..وإذا أراد العالم أن يضع ميثاقاً للعدالة ونموذجا للحاكم العادل الشريف فإنهم لن يأتوا بمثل ما قدمه عمر بن الخطاب في سيرته وعدالته وفناء ذاته في خدمة رعيته..
قدمت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر تشكو واليه عمرو بن العاص الذي قد أدخل دارها في المسجد كرهاً عنها ، فيسأل عمراً فيخبره أن المسلمين كثروا حتى ضاق بهم المسجد وفي جواره دار هذه المرأة وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ في الثمن فلم ترض ، مما اضطر عمرو إلى هدم دارها وإدخاله في المسجد ، ووضع قيمة الدار في بيت المال تأخذه متى شاءت ، وفي عصرنا الحاضر لا تمنع القوانين

مثل هذا التصرف لكن عمر لم يرض بذلك ، وأمر عمر ﷺ أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت ! ..

ويأتيه يوما شابٌ مصري قبطي يحمل شكوى من ابن حاكم مصر، العربي الشريف عمرو بن العاص .. وقد سابق ابنه محمداً يوماً ، فسبقه القبطي .. فضربه ابن (عمرو بن العاص) وهو يقول: (أتسبقني وأنا ابن الأكرمين) ..فيستدعي عمر الحاكم وابنه .. ويناول القبطي الدرة ويقول له : (اضرب ابن الأكرمين) .. فيقتص القبطي من ابن حاكم بلده .. ثم يقول عمر : (أدرها على صلعة عمرو.. فما ضربك إلا بسلطان أبيه).. ثم يلتفت إلى (عمرو بن العاص) وابنه ويعلنها مدوية خالدة.. (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) ؟!

ورأى ﷺ مرة في السوق شيخاً كبيراً يسأل الصدقة ، فقال له : من أنت يا شيخ ؟ قال: أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة ، وكان يهودياً من سكان المدينة .. فإذا بعمر ذلك الحاكم العظيم يقول له : ما أنصفناك يا شيخ ، أخذنا منك الجزية شاباً ثم ضيعناك شيخاً ، وأخذ بيده إلى بيته ففرض له ما كان من طعامه ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول: افرض لهذا وأمثاله ما يغنيه ويغني عياله .. ووضع الجزية عن فقراء أهل الذمة.!

هكذا كانت العدالة ، ومع من ؟ مع اليهود والمسيحيين الذين يدينون بغير الإسلام يا من تدعون للمواطنة، وحفظ حقوق الأقليات.!

يقول الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) رحمه الله: (من أتيحت له الفرصة لأن يكون مفيداً للآخرين وخادماً للجميع ، ولم ينتهزها في إقامة العدل وإعلاء كلمة الله في أرضه وكسب النفوس وخدمة الآخرين وزيادة رصيده عند ربه وعند الناس ..فإنه يستحق الرثاء..)[1]

واليوم ..نرى أمتنا وقد بليت بالحكام المستبدين الذين يخونون أمانتهم وشعوبهم من أجل عروشهم ، يدهسون كل شيء من أجل هذه العروش ..فلا قيمة لديهم للدين والضمير والعرض والشرف ..! كل شيء ينتهك من أجل مناصبهم وأمجادهم التي يتسلطون بها على العباد ويرتكبون أبشع الجرائم في حق الضعفاء والمقهورين..

وليس هؤلاء الجبابرة وحدهم..بل يشاركهم في الإثم أذنابهم، الذين انتشروا في طول البلاد وعرضها، يمكنون لسادتهم ،فيجعلون من الباطل حقاً ، ومن الحق باطلاً، ويمارسون الجرائم في حق الأمة ومستقبلها ومصيرها عبر التضليل والخداع والكذب والتزوير ..يلبسون على الشعب أن سيدهم هو الذي انتخبته الجماهير واختارته حرة بأصواتها ، وفي الخفاء يحشدون الصناديق زوراً بأصواتهم الكاذبة ، وقد رأيت في قريتي عصابة منهم يوم الانتخابات تغلق الصناديق ويعبؤنها بعد أن حشدتها بالزور لمرشحهم اللعين ، وهي أكبر جريمة، وأعظم خيانة، وأشد أذية ، يرتكبها هؤلاء الأشرار للبلاد والعباد، لأنها إهدار للحرية، وعبث بالإرادة، واغتصاب بشع خسيس لحقوق الأمة..

بل هي الشر كل الشر، لأنها مطية الاستبداد الذي أهلك الأمة، ومكن الفجرة من رقاب أبنائها ، وتسبب في ضعفها فتكالب عليها أعداؤها..فالأمة التي تقتل حريتها،

---

[1] أرجوك أعطني عمرك -عبد الوهاب مطاوع

وتموت إرادتها، ويغتصب حقها في تقرير مصيرها، أولى بها أن تعيش تحت التراب ،أو تتخذ مواطن عيشها في الحظائر مع الحيوانات، لأنها تشبههم وتحاكيهم في سلب الإرادة والاختيار.!

المثقفون في معترك الحياة

الفيلسوف والمثقف الحقيقي هو الذي يدرك واجبه نحو المجتمع ودوره بين الناس ، وهو الدور الذي يفرض عليه أن يقبع في ميدان الحياة لآخر نفس من أنفاسه، يُصلح قدر ما يستطيع ويعارك هنا وهناك حتى تنتصر مبادئه..وعندي أن المثقف الذي يعتزل الحياة ويهجر حياة الناس ، هو تماماً كذلك الجندي الذي يفر من المعركة، وهو لا محالة خائن للأمانة التي استوعبتها نفسه من الثقافة والعلم والفهم.

وما أتفه هؤلاء الحالمون ..وما أحمق ما جمح إليه خيالهم المريض.! فأحدهم يتأمل ويصمت برهة ثم يقول: إن أمنيتي في الحياة أن أنفرد بنفسي في جزيرة نائية بعيدة ، أعيش بين أشجارها وثمارها وأشرب من عيونها ، وأشاهد الشمس وهي تضرب صفتها صباحا ، وأستمتع بالغروب حيث يرخي الليل سدوله على جنباتها ..فأريد أن أرحل عن هذا العالم وأهله، فلا أتنفس هواءهم ولا أبصر مرآهم..

وهكذا جعلت منه الثقافة... وصيرته فوق الناس وغير الناس وضد الناس وكارهاً للناس ..!!

إن أحد هؤلاء المثقفين حدثتهم أنفسهم يوماً أن يترك الميدان ويأوي إلى بلدته في الريف حيث السكينة والهدوء والفرار من الأعباء وراحة البال ..إلا أن الرجل لم يفعل ذلك ولم يطمع فيما تشتهيه نفسه، لأنه أدرك كمثقف أن لديه رسالة في الحياة ولابد أن يؤديها بهمة ودأب حيث يقول:

(إني أهتم بالدنيا ومصير الإنسان أكثر مما أهتم بنفسي، فالسعادة الإنسانية هي أن نهتم بالإنسان ..كنت وأنا في سن الأربعين أو الخمسين، عندما كانت الحياة ترهقني بتكاليفها وأعبائها، أهفو إلى الريف وأحلم بالراحة والهناء في سذاجته وأتمنى قضاء السنين الأخيرة من العمر فيه حيث البساطة في كل شيء كما فعل (روسو) ولكني الآن لم أعد أسيغ هذا الحلم، هذا الفرار من أعباء الإنسانية، بل أصبح همي أن أزيد هذه الأعباء بأن أستوعب مشكلات العالم وأدرس ثقافته، وأحس كلما زادت هذه المشكلات وتعقدت أن مسئوليتي قد زادت أيضا.

والرجل المثقف الذي ينشد الريف وسذاجته وراحته هو جندي فار من معركة الخير والشر التي يجب أن يعرف مكانه فيها ، وقد كنت أيضا أفكر في هواية ما تخفف من جَد الحياة وضغط المسئوليات، بل لقد نصحت الشبان بأن يختاروا إحدى الهوايات ويتعلَّقوا بها، ولكني أحس الآن أن الهواية فرار آخر من الحياة، وأننا يجب ألا ننشد التسلية وتزجية الوقت بل ننهض بعمل إيجابي كفاحي لخير الإنسانية، وأصل الرغبة في راحة الريف، واتحاد الهواية، هو أننا ننشد عن جهل ما نسميه السعادة، ولكن هذه السعادة تخدر النفس، أما الهموم والاهتمامات فتنبهها، ولن نحس الحياة على أعمقها إلا حتى نكافح، من أجل الخير في العالم.)

هناك كلمات تشيع بين من يبحثون عن سبل السعادة في الحياة ، كأن يقول أحدهم:

اهتم بذاتك ، استمتع بحياتك، عش يومك، قدر ذاتك، أنت أولاً..!!

وحينما طبقها من رددوها ..فإنهم لم يجدوا السعادة ولم يستمتعوا بشيء منها، لأن السعادة لا توجدها الأنانية ، والذين يعيشون لأنفسهم ولا يرون غير ذواتهم .. تخلوا عن معنى الحياة الحقيقة ..ولعل التجربة خير شاهد على ما نقول..!

دخلت امرأة يوما على أحد المثقفين التربويين وهي تبكي وتعرض عليه أمرها عسى أن تجد عنده علاجاً، فقالت له : لقد غيرت نمط حياتي بعد حضوري إحدى الدورات التدريبية فقررت أن تكون نفسي هي رقم (١) في حياتي، فغيرت صديقاتي وتركت تربية أبنائي للخادمة وأهملت زوجي ومع هذا كله لم أشعر بالسعادة التي كنت أنشدها، فتعلق أبنائي بالخادمة وصار زوجي يبحث عن امرأة أخرى وظللت أجعل نفسي أولا ولكني ما زلت لا أشعر بالراحة والسعادة، وبعدها دخلت دورة ثانية لأعالج مشكلتي وأغير نفسيتي لأكون سعيدة، فتعلمت في الدورة أن أكافئ نفسي وأشرب القهوة لوحدي وأعمل مساج لجسدي وأسافر لبلد لم أزرها من قبل، وقد عملت كل هذا وما زلت غير سعيدة فلا أعرف ماذا أفعل؟

فقال لها: إن الذي يتحدثون عنه في الدورات المترجمة يصلح لمجتمع مختلف عن مجتمعنا، وهو مجتمع يؤمن بحياة واحدة وهي الدنيا ولا يؤمن بالحياة الآخرة، ولهذا يرددون (عش يومك) ويتغنون بـ (استمتع بحياتك) ويعلنون شعار (أنت أولا) أو (اهتم بذاتك) لأنهم يرون فقط حياة واحدة وهي الدنيا، بينما نحن نرى الدنيا هي مقدمة لحياة أخرى سماها القرآن (دار الحيوان) قال تعالى: (وإن الدار الآخرة لهي الحيوان) يعني هي الحياة الدائمة والخالدة والباقية.

فمن كان يؤمن بالحياتين الدنيا والآخرة ، فإنه لا يستطيع أن يطبق الكلام الذي يتردد بالدورات واللقاءات وهو إعطاء الأولوية للنفس مع إهمال حقوق الوالدين والأهل والإخوان والأصدقاء، فإن الذي لا يؤمن بالدار الآخرة عندما يتحدث عن الاهتمام بالذات فهو يتحدث بكلام يتناسب مع ثقافته وحياته، لأن الشخص الأجنبي عندما يبلغ عمره ١٥ عاما يستقل عن والديه ولا يتواصل معهما إلا بالأعياد والمناسبات فقط، فتكون نفسه رقم واحد في الحياة وهمه إسعادها، أما الذي يؤمن بالله ورسله وكتبه فإن عليه التزامات وواجبات تجاه والديه وأهله وأصدقائه وحتى جيرانه، فالمعادلة مختلفة بيننا وبينهم.

قالت المرأة: لقد لفت نظري لأمر لم أفكر به سابقا، بل إني تعلمت في الدورات أن لا أساعد شخصا لا يستحق المساعدة، ولا أهتم بشخص لا يبادلني نفس الاهتمام، ولا أخدم شخصا لا يقدر خدماتي له إلا لو رد إلي الجميل.

فقال لها: فأين العمل لله تعالى ونيل الثواب إذن من هذه الأعمال؟ نحن لسنا مغفلين ولا ساذجين ولكننا كذلك واعون ونعرف متى نقدم الخدمة للناس بالوقت الصحيح، على أن يكون عملنا في الأساس من أجل الله وليس من أجل الناس، فنحن لا ندعو لعدم المبالاة، ولا نلغي الاهتمام بالذات، لأنها من صميم ديننا ، ولكننا نشجع التوازن في التعامل مع الذات، فنكتشف ذواتنا ونهتم بها ونقدرها ومع هذا لا نهمل واجباتنا تجاه أهلنا ومجتمعنا..

إن ديننا يشجع على ثلاثية العلاقات وهي: (إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا)، فالأصل أن نحقق المعادلة بين العلاقات الثلاث (العلاقة بالخالق،

والعلاقة بالمخلوق، والعلاقة مع الذات) فنحن نعطي للذات ثلث الوقت في الحياة الدنيا وفيها نقول : استمتع مع نفسك، العب رياضة، وتناول القهوة، وشاهد فيلما، وارسم لوحة، واعمل مساجاً، ونم مرتاحاً، ولكن بقي ثلثان ينبغي أن لا نهملهما، وهما الأول العلاقة بالخالق وفيها العبادة والمعاملات والتزامات كثيرة مبينة في الفرائض والسنن، والثاني العلاقة بالناس والمخلوقين ومنها الأهل والأقرباء والزوج والأبناء وفيها كذلك التزامات أخرى.

وأمام هذه الردود الواعية قالت المرأة : أعجبتني هذه الثلاثية التي لم أسمعها بالدورة التي حضرتها، ثم قالت: وما رأيك بما تعلمته كذلك وهو أن (لا أكون شمعة تحرق نفسها لتنير الطريق للآخرين؟

قال لها: إن الذي علمك هذه الجملة كان عليه أن يفرق بين أمرين: الأول ربما أنت سعادتك في أن تضحي بوقتك ومالك لخدمة الناس وإسعادهم، ففي هذه الحالة ستكونين سعيدة عندما تحرقين نفسك من أجلهم، والثاني يعتمد من هم الآخرون! فلو كان والدك أو والدتك إلا يستحقان أن تحرقي وقتك ومالك وصحتك من أجلهما؟ قالت له: كلامك صحيح وأنا لم أفكر بهذه التفاصيل، فقال لها: بل نحن في معتقدنا أن نحرق حياتنا من أجل الله تعالى لأن الحياة الحقيقية هي الآخرة،وإلا كيف تفسرين من يقدم نفسه وروحه لله ويكون شهيدا؟!

سكتت المرأة وأخذت تفكر فيما قاله لها الرجل المثقف وبينما هي في صمتها قال لها: والآن اهتمي بذاتك وزوجك وأهلك وأولادك وابتعدي عن أكذوبة (إن الاهتمام بالذات يكون على حساب الأولاد والبنات)، فنحن لم ننجبهم من أجل أن نتركهم، بل أنجبناهم ليكونوا خلفاء بالأرض، ويتحملوا أمانة تبليغ الرسالة وهذه تحتاج منا لجهد ووقت وتضحية وتعاون حتى نؤدي الأمانة، فارجعي لبيتك وخططي لدنياك وآخرتك واهتمي بنفسك وصحتك وإيمانك ستكونين سعيدة بحياتك.

وكان الأستاذ (توفيق الحكيم) ممن يستخدم فنه وإبداعه وثقافته في إصلاح الحاكم الطاغية ومحاولة نصحه وإرشاده حينما كان يراه يدهس الديمقراطية ويجور على الحرية ، ويمعن في قهر الشعب ، ويحاول تقديس ذاته ..كان يمكن للحكيم أن ينأى بنفسه عن هذا المسلك الوخيم، ويعيش مع قلمه فيما يستطيع صياغته من مسرحيات الهوى والغرام والفكر والأدب والكتابات الدرامية التي تناقش أحوال الناس ومشكلات المجتمع المصري، لكنه كمثقف وضع يده على أصل الداء، ووجه كلمته وفنه للحاكم ولكن بطريقة غير مباشرة ..لقد جسد في كتابه (عودة الوعي) مرحلة التيه التي غرق فيها الشعب المصري وفقد فيها وعيه إلى أن عاد إليه مرة أخرى ، ويعترف الحكيم بأنه كان أحد الذين فقدوا وعيهم فأيدوا كثيراً من القرارات الخاطئة ضد الحرية والديمقراطية ،وفي ظل هذا ..كان الشعور الوطني يلقي بثقله على الحكيم فهو لابد أن يردع الطاغية ..لابد أن يقول له : أنت مخطيء ..ولكن لا سبيل إلى هذا إلا بطريقة موارية وغير مباشرة..فقد كان عندما يخالجه شك ويرى منه الشطط والجور يلجأ إلى إشعاره برأيه ، ويستخدم في ذلك قلمه وموهبته..فخاف مرة أن يجور سيف سلطانه على القانون والحرية، فكتب (السلطان الحائر) ، ثم خاف أن يكون غافلاً عما أصاب المصريين قبيل حرب ٦٧ من القلق والتفكك فيعتمد عليه في الإقدام على مغامرة من

المغامرات فكتب له (بنك القلق) ..وهي جميعها كتابات رفيقة بعيدة عن العنف والقسوة ، تشير إلى المقصود في هدوء وحكمه ..أما (عبدالناصر) فقرأ كل ما كتبه الحكيم ، ولعله فهم مقصوده، ولكنه لم يأخذ به في شيء مما سلك..وهي الطريقة المتخفية التي لجأ إليها الحكيم حتى لا يجلب لنفسه الضرر من حاكم أرعن مغرور جر على بلاده عارا وهزيمة من سياساته الحمقاء وقراراته الهوجاء..وهذا هو المثقف الحقيقي الذي تلقي الثقافة على كاهله مسؤولية تجاه مجتمعه وأمته ،وقد أعجبني ما قرأته عن أصل كلمة (ياخراشى) ..! وهي المقولة الشعبية الشائعة على ألسنة المصريين، فيذكر أنها قيلت لأول مرة من الناس في مصر، قبل ألف عام، ويقصد بها النداء لشيخ للأزهر الشيخ (سليمان بن صالح الخراشي)، الذي عظم سلطانه، فكان ينصر المظلوم والضعيف ويؤيد الحق ولا يخاف الظلم مهما علت قوته، فكانت كلمة (ياخراشي) هي النداء إلى الشيخ (الخراشي) من كل المظلومين، كي ينصرهم على الظلم الواقع عليهم، حتى ولو كان من صاحب سلطان ، فإذا ظلمهم ظالم قالوا : يا خراشي ، وإذا ظلمهم حاكم البلاد، قالوا : يا خراشي، وإذا اختلف الناس، قالوا: يا خراشي، حتى عندما تصيبهم مصيبة يقولون يا خراشي ، وفي ذلك دلالة واضحة على مدى قوة الأزهر ومكانته، وانخراطه في حياة الناس ومشكلاتهم.

لقد كان الأزهريون في هذه الحقب هم المثقفون الذين يمثلون وجدان الأمة ووعيها بواقعها ، وكان الأزهر قديماً يمثل صداعاً للحكام والسلاطين على مر العصور ، بل كان يتهيبه الاحتلال ذاته، ويحسب له ألف حساب ، مما دعا نابليون بعد أن فقد حيله، أن يصوب مدافعه الآثمة، لتصب نيرانها في ساحته الشريفة ، وتهدم عماداً طالما ركن إليها أفذاذ العلماء.. كان الأزهر مدرسة للحرية والكرامة، قبل أن يكون مدرسةً للعلم والفقه في الدين ، ومن ثم أجهد المستبدون أنفسهم في القضاء عليه وإضعاف شوكته، وكانت لهم في ذلك أساليبهم لإضعاف مناهجه، وتنصيب علماء السوء في مراكزه القيادية ، وإخضاع شيخه للتعيين بدلاً من الإنتخاب الحر، كما منحوا لأنفسهم سلطة اختيار هيئة كبار العلماء ، فلا ينضم إليها إلا من رضي عنه السلطان.

لقد أدركت الأنظمة المستبدة أن حصار الأزهر وتفريغه، ضرورة ملحة للحفاظ على بقائها ، فإنها لا تستطيع أن تقبل ما يحكيه التاريخ من شراسة الأزهر في معاملة الحكام، واعتراض طريقهم ، وفرض إرادته، وجرأة علمائه عليهم، ونصرته للناس الذين يريدون أن يسرقوا حقوقهم.

إن الأزهر كانت لديه قدرة فائقة على قيادة الجماهير ، وكان لعلمائه قدسية في نفوس الناس ، فهم من يحملون همومهم ويعيشون آلامهم وآمالهم ، ولم تكن هذه القدسية في مصر وحدها، وإنما كان جلالها ينبعث في ربوع الأمة ووجدانها، بل كانت لعلمائه مكانة أجل من مكانة السلاطين والملوك، إن لم تكن تفوقها، وهو ما وصفه شوقي في قوله:

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا ** وانثر علي سمع الزمان الجوهرا
واخشع مليا واقض حق أئمة ** طلعوا نجوما ثم ماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة ** وأعز سلطانا وأفخم مظهرا

وإنك لتعجب كل العجب من هذه الصورة السحيقة التي وصل إليها حال الأزهر وشيوخه اليوم، وحينما تطالع ضرباً من تاريخه المشرف، وكيف كان لعلمائه عزة وإباء وشمم، وكيف كان السلاطين يسعون إليهم، ويستميلون رضاهم ، ويخشون جنابهم ، ويتشرفون بحضورهم، ولا يقطعون أمراً دونهم.
ورحم الله شيخاً أزهرياً .. كان يعلن على الملأ بأنه موظف في الدولة ، و لا ينفذ إلا ما يمليه عليه من عينه !، فما رأيناه يوماً في صف الإسلام ، أو داعماً ومنصفاً لقضاياه.
إن أنظمة الاستبداد سلطت إعلامها وكتابها المأجورين ، لشن حملات تنال من العلماء ، وتضعف من مكانتهم ودورهم المؤثر، فنجحت في نقل القيادة الجماهيرية إلى صفوف الملاحدة من الشيوعيين والعلمانيين ، وتآمرت على الأزهر ، فعملت على تخريج أجيال من الدعاة لا تفقه من الدين سوى أنه عملية روحية ، وأن عِلمه في الغسل والطهارة ، أما أن يكون للدين علاقة بمستقبل الأمة وسياستها، وتوجيه الرأي العام في قضاياها ، أو أن يكون لهؤلاء فكر ورؤية وأبعاد ، فإن هذه الصورة غريبة مستنكرة في فكرهم، بل ربما يعدها بعضهم خروجاً عن روح الدين.!

أنانية البشر

أسرع (غاندي) يوماً ليلحق بالقطار ، فأدركه في لحظاته الأخيرة ، ولكنه لما بدأ القطار في السير صعد غاندي وفي أثناء صعوده سقطت إحدى فردتي حذائه، فما كان منه إلا أن خلع الفردة الثانية وبسرعة رماها بجوار الفردة الأولى على سكة القطار ..تعجب من حوله بهذا الصنيع ، وأسرعوا يسألونه : ما حملك على ما فعلت ؟! لماذا رميت فردة الحذاء الأخرى؟
فكان جوابه الحكيم: أحببت للفقير الذي يجد الحذاء، أن يجد فردتين فيستطيع الانتفاع بهما ..فلو وجد واحدة فلن تفيده الأخرى ..أنا كذلك لن أستفيد منها أيضاً.
ولعله يذكرنا بموقف ذلك اللص الذي سرق عمامة (عمر بن الخطاب)ﷺفي السوق وولى هارباً ..فأخذ عمر يركض خلفه وهو يصيح ويقول : (أشهد الله أنى ملكتك إياها .. فقل قبلت حتى لا تمسك النار)..ولم يكن عدوه وراءه ليقبض عليه وإنما ليبرئه منها ويعلمه بذلك، بل ليرد عليه بأنه قبل مسامحته فيها...!
أما غاندي فإنه برهن عمليا على أنه لم يكن أنانياً ، وأنه مشغول بغيره ..لأن الأنانية تعمي عن التفكير في الغير..إنه على جناح السرعة رمى بحذائه الآخر حتى ينتفع به غيره، ولو أن نفسه كانت محور اهتمامه لاستاء من فقدانه للحذاء الأول ..
وقد قيل: (إذا فاتك شيء فلا تأسى عليه لأنه سيذهب إلى غيرك، ويحمل له السعادة ويسره)
وهو نفس ما تأملته حينما اصطدمت سيارتي يوماً ..فصرت كئيباً محزوناً..ولكني بعد روية أدركت أن ما أنفقه عليها ، رزق ساقه الله لمن يصلحها..وهكذا تطمئن النفوس وتسعد حينما تتلاشى منها الأنانية.
نكتب هذه السطور لننشد أناساً يرحمون البشر بعدما شقيت دنياهم بالعذاب والآلام جراء الأنانية..فلا تلبث الساعة أن يقفز عقربها حتى نسمع عن تدمير هنا وهلاك

هناك.. أشلاء ودماء تشهد كل يوم بقسوة البشر ووحشية قلوبهم ...لقد غابت الأحاسيس والمشاعر عن هذا العالم ، وتنكرت الدنيا للوجدان والعاطفة..أما حينما طغى الإنسان وصار لا يؤمن إلا بنفسه وذاته، حتى لو هلك أهل الأرض كلهم أجمعون ، وهي الأنانية التي بسببها لن تستقر للبشرية حياةٌ ولن تعرف لنفسها قراراً .. مادامت لها جذور في نفوس أحيائها.

اقرأ معي ما قاله (العقاد) وهو يرثي هذه الإنسانية المعذبة:

(مسكينة هذه الإنسانية ... لا تزال في عطش شديد إلى دماء الشهداء، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خصوصا من دون سائر الأزمنة الغابرة، لأنه الزمن الذي وُجدت فيه الوحدة الإنسانية وجوداً مادياً فعليا، وأصبح لزاماً لها أن توجد في الضمير، وفي الروح كما وجدت في الخريطة الجغرافية وفي برامج السفن والطائرات)[1]

ويقول (أرسطو) : (إننا في حبنا الخير لغيرنا وفي بحثنا عنه نجد لأنفسنا خيرا)

وقال (سكنا): (لو أعطيت الحكمة كلها لنفسي على أن استاثر بها وامنعها عن إخوتي بني الإنسانية لكرهت الحكمة)

لقد كانت هذه المثل موجودة في الغرب على مستوى أشخاص معدودين.. وهي القيم التي أقرها ديننا وقدمتها حضارتنا فكانت على مستوى عريض يمثله مجتمع كبير ، ويتبارى في تقديمها خلق كثيرون كبارا وصغاراً رجالا ونساءً..!

لقد حاول هؤلاء الحكماء أن يعبروا عما أقره القرآن وصوره الله تعالى في آياته عن طبيعة العلاقة بين المؤمنين..تلك العلاقة السامية الراقية التي تتجرد من الأثرة والأنانية والتعالي وحب الذات قال تعالى: (إنما المؤمنون إخوة) ولقد كانت الأخوة بينهم كائنة بمعنى الكلمة..التزموا بتحقيقها كما التزموا بتحقيق الصلاة والزكاة ، حتى تعدت بينهم إلى طور لا مثيل له، فكان منهم من يفدي أخاه بنفسه وماله.

ومن جميل ما يروى عن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلًا لهم أرغفة معدودة لا تكفيهم شبعًا، فكسروها وأطفأوا السراج، وجلسوا للأكل، فلما رفعت السفرة؛ فإذا الأرغفة محلها لم ينقص منها شيء، لأن أحدًا منهم لم يأكل إيثارًا للآخرين على نفسه حتى يأكلوا جميعًا..!

وفي الهجرة إلى المدينة كان المسلمون الأول لا يحملون من متاع الدنيا سوى ثيابهم البالية، وأجسادهم المنهكة، وثقتهم بما وعدهم ربهم سبحانه، فشاهد النبي ﷺ حالهم فكان نداءه الأخوي للأنصار والذي دعا فيه لتطبيق مبدأ الأخوة بينهم وبين إخوانهم المهاجرين:

(إخوانكم تركوا الأموال والأولاد، وجاءوكم لا يعرفون الزراعة؛ فهلا قاسمتموهم ؟ قالوا :نعم، يا رسول الله! نقسم الأموال بيننا وبينهم بالسوية، فقال لهم النبي ﷺ: (أوَ غير ذلك؟ قالوا: وما غير ذلك يا رسول الله؟ قال: (تقاسموهم الثمر،قالوا:نعم يا رسول الله، بم؟ قال: بأن لكم الجنة) صححه الألباني

---

[1] أبو الشهداء – عباس العقاد

وهكذا نجح هذا المجتمع الأول ونال الإشادة من ربه تعالى حينما وصف أفراده بقوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(الحشر: ٩)

لقد كان بنو هاشم وبنو أمية يتسابقون في الفضل والشرف، وكان لكل منهم طريقة تغاير طريقة الآخرين في هذا السباق ، ولكن بنو هاشم كانوا أفطن منهم إلى السلوك النجيب الذي عزز مكانتهم بين الناس..كانوا يفكرون في غيرهم أما بنو أمية ففكروا في ذواتهم.. لقد وضح الفرق بينهما (في الخلائق والمناقب في الجاهليّة قبل الإسّلام، فكان الهاشميون شرّاعاً إلى النجدة ونصرة الحقّ والتعاون عليه ولم يكن بنو أُميّة كذلك ، فتخلّفوا عن حلف الفضول الذي نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم، وهو الحلف الذي اتفق فيه نخبة من رؤساء قُريش: ليكونن مع المظلوم حتّى يؤدّوا إليه حقّه، وليأخذن أنفسهم بالتآسي في المعاش والتساهم في المال، وليمنعن القويّ من ظُلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب واتفقوا على هذا الحلف؛ لأنّ العاص بن وائل اشترى بضاعة من رجل زبيدي ولواه بثمنها، فنصروا الرّجل الغريب على القرشي وأعطوه حقّه)[1]

تقول الكاتبة (أمل الطعيمي) : (خذ مثلاً كم مرة مررت بسيارتك بجانب أخرى معطلة وصاحبها وقف يطلب العون وأكملت مسيرك دون أن تفكر بالتوقف للمساعدة!، وكم مرة رأيت أحدهم وهو يحمل أحمالا ثقيلة ولم تعرض عليه المشاركة!، كثيرة هي هذه المواقف التي تجعل من ينظر للموقف عن بعد يتساءل أين ضاعت الرغبة في مد يد العون من أجل الامتثال للقيم الإسلامية العظيمة في التعاون والتراحم والإغاثة والإيثار والمساعدة ؟

هذا شاب كفيف خرج من مدرسته وأثناء وجوده في الحافلة شعر بالجوع واتصل بالمطعم ليضمن وصول وجبته للغداء في أقرب وقت من وصوله لبيته حيث يعيش بمفرده، وفعلا وصل إلى بيته وبعدها بدقائق وصلت الوجبة، خرج لاستلامها وسرعان ما سمع صوت انغلاق الباب الحديدي للشقة خلفه، بقي هو ووجبته في الخارج، وهو يكابد حرارة الشمس وحرارة الجوع فطن له رجل خدمة التوصيل فطلب له العون من جاره تقدم نحوه وعرف بالأمر وقال: وماذا يمكن أن أفعل؟ وذهب بلا رجعة، بعدها بلحظات سمع خطوات لآخر فناداه طلبا للمساعدة وقال له الآخر :سأذهب وأعود إليك، ولكنه ذهب ولم يعد..

وما زال الشاب واقفا مجهدا بعد عناء دوامه المدرسي وجوعه وحرارة الشمس الحارقة، هاتفه بالداخل والباب صلب عنيد..دقائق فإذا بشخص سخره الله له، عرف بالأمر وحاول قليلا مع الباب ولم تفلح المحاولة فعرض على الشاب أن يرافقه إلى سكنه حتى يأكل طعامه ويرتاح قليلا ثم يعودوا للباب، ولكن الشاب شكره وقرر الانتظار، ذهب الشاب وما هي إلا دقائق معدودة ليعود ومعه صديق آخر وآلة يحاولون بها فتح الباب بذلوا جهدا ووقتا وأخيرا فتح الباب بمساعدتهم، وأحدهم يقول

---

[1] أبو الشهداء – عباس العقاد

بعد أن استمع لشكر الشاب له، يا أخي (الناس لبعضيها) فهل كلنا نطبق هذه المقولة البسيطة الجميلة؟ هل حقا نحن مقتنعون بها وعاملون بمقتضاها (الناس لبعضيها)[١]

الجاحدون ..هل يهدمون مروءتنا ؟

ليس هناك من صفة أخس من الجحود في هذا الوجود .. وما أكثر ما نرى من صفة الجحود هذه الأيام ، تنتشر بين أناس كنت في يوم من الأيام تقتص من وقتك ومالك وراحتك لراحتهم وسعادتهم وهنائهم..!

إحساس عميق بالغدر والخيانة حينما تعطي وتمنح وتبذل وتجود، ثم لا تجد ممن أحسنت إليهم غير النكران والكفران..قد يكون قلبك قوياً فتياً أمام نوائب الحياة وصدمات الأيام ، يستطيع أن يقابلها بثبات ويواجهها بصلابة، لكنني أثق أن صدمة الجحود قوية تعيا بها النفس عياً ، ويئن لها القلب أناً..وفي حياتك لابد أن تقابل هذه الأصناف الجاحدة ، ولابد أيضاً أن يعتصرك الندم على ما قدمته لهم ولكن لابد لك أن تتمالك نفسك وتتخطى هذه الأزمة التي كشفت عن حقيقة صاحبها.

وأنت بدورك.. تجاهل هؤلاء الخونة الغادرين ، واجعل صنيعهم درساً من دروس الحياة التي تتعلمها كل يوم..تعلم أنك لم تخسر شيئاً وإنما هم الخاسر الأكبر، حينما خسروا رجلا ذا مروءة ونجدة..خاصم هذه الوجوه العكرة الكالحة.. فرؤيتها ومعاشرة أصحابها يُفسد عليك الحياة وقد قيل:

(إذا أحببت أن تتعلم فلابد أن تتألم ..الحياة مملوءة بحجارة الجحود ، فلا تتعثر بها ، بل ابن منها سلماً إلى قمة المجد الأخلاقي)

قد يظن المرء أن بعض الأمثال تميل إلى المبالغة ، وتتجاوز حدود الواقع الحياتي بين الناس : أو أنها تعبر عن حالة فريدة وتريد أن نجعلها أصلا أصيلا في دنيا الناس ..ولكن لا يمر يوم حتى نرى من الحوادث والمواقف ما يؤيدها ويثبت صدقها خاصة تلك العبارة التي تقول: اتق شر من أحسنت إليه.

وهي لا شك من أرذل الخلائق التي يأتي بها الإنسان ، حينما ينكر المعروف ويعض اليد التي امتدت إليه بالخير والإحسان ..ومن المفارقات المدهشة أن هذه الصفة تحديداً لا تجدها في بعض الحيوانات التي تتسم بالوفاء لصاحبها ولا يمكن أبداً أن تضر من تعامل معها بإحسان وكأنها تريد أن تعلمنا هذا الدرس..وتقول لنا: إنكم يا معشر البشر إن تنصلتم من الوفاء وأتيتم بالغدر فأنتم أقل منا ونحن أرفع منكم ..

هل تذكرون ذلك الأسد الذي عدى على مدربه (محمد الحلو) وتسبب في وفاته ؟! لقد فعل ذلك في غفلة منه وحينما غلبت عليه طبيعته الوحشية..لكنه لم يلبث أن أصابه الحزن الكثيف بعد موت مدربه ، ليمتنع عن الطعام ويمرض ثم يموت..

ثم هل تعلم قصة هذا الكلب الشهير الذي خلد اليابانيون قصته وصنعوا له تمثالاً شهيراً وجعلوا منه رمزاً للوفاء ..إنه الكلب (هاتشيكو) الذي كان يملكه (هيده-سابورو أوينو) الأستاذ بجامعة طوكيو ، والذي اعتاد مرافقة صاحبه إلى محطة القطار عند ذهابه للعمل ، وحينما كان يعود يجد كلبه في انتظاره ، وصار هذا التقليد شيئاً معلوما ومألوفاً لدى المسافرين إلى أن جاء ذلك اليوم الذي لم يعد فيه البروفيسور ، فقد توفي إثر إصابته بجلطة دماغية عام ١٩٢٥م ، ولكن الكلب الوفي

---

[١] من مقال لأمل الطعيمي – جريدة اليوم السعودية نوفمبر ٣٠، ٢٠١١، ١:٠٥ ص

ظل ينتظر صاحبه ، ولا يستطيع أحد من الناس أن يخبره بما حدث أو يصرفه عن الانتظار الذي طال وسيطول ..لقد حاول الناس صرفه من هذا المكان بشتى الوسائل ، ولكنه أصر على الانتظار الذي لم يستمر يوماً أو يومين وإنما طال انتظاره لعشر سنوات كاملة!

كان المشهد يثير الإشفاق في قلوب الناس ، حتى أن بعضهم ذرف الدموع ، وكتبت الصحافة عن وفائه النادر وصارت قصته حديث الأمة اليابانية حتى أن المعلمين في المدارس كانوا يضربون به المثل لطلابهم ويعلمونهم به أن يكونوا أوفياء لوطنهم كما كان هاتشيكو وفيا لصاحبه..وفي عام ١٩٣٥م عثروا على جثته ميتاً بأحد الشوارع فأحاطوها باحترام وتقدير وجرى تحنيطها وعرضها في المتحف الوطني للعلوم في اينو بطوكيو.

في أحد المقاطع الشهيرة على اليوتيوب تظهر قصة مؤلمة تجسد معنى الجحود والنكران والأنانية وانعدام الإنسانية ..هاهي امرأة حزينة استمع إليها الناس وتفاعلوا مع قصتها المأسوية التي تعرضت فيها لآلام الجحود التي لا يشعر بها غيرها، حينما تبرعت بكليتها لمديرتها في العمل ولكن الأخيرة قابلت ذلك الفضل والإحسان بفصلها من العمل لأنها أخذت وقتاً كبيرا في عملية الاستشفاء وفترة التعافي ..وهكذا تكون المكافأة لمن وقفت بجانبها وضحت من أجلها بجزء من جسدها حتى تنقذها من الموت وترحمها من الآلام، ويالها من امرأة صغيرة حقيرة معدومة الخلق متبلدة الضمير والمشاعر ..لا تبالي بأن تحمل عضواً من جسد امرأة تستأنف به حياتها ثم تهينها وتفجعها وتقطع رزقها وترم بها في الشارع ذليلة كسيرة.

وأمثال هذه المرأة كما قيل : تعودوا أن يأخذوا ولا يعطون يعيشون في وحل الأنانية إلى أذقانهم ويحبون ذواتهم إلى حد مخيف لا يرون معه سواها ولا يبالون بالآخرين من حولهم حتى من أسدى إليهم معروفاً، فإنهم يكفرون به أمام نداء الأنانية الوحشي بدناءة مفرطة لا تمنعهم أن ينتهجوا الخبث حتى ينالوا ما يريدون ثم تظهر حقيقتهم المرة التي تتجرد من القيم والشهامة والمروءة ويصدق فيها قول المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريمَ ملكته ** وإن أنت أكرمت اللئـــيمَ تمّردا

ويصدق فيها قول زهير :

ومن يصنع المعروف في غير أهله ** يكن حمده ذماً عليه ويندم

إن خطورة الجحود على المجتمع وعرة مذهلة، لأنه يجفف مشاعر البر في نفوس المحسنين..التي تعرض جراء ما تقابله من صور الجحود المختلفة..ولماذا لا تنأى بنفسها عن هذه الصدمات القاسية..ولكن بعض الفاهمين يقول:

(لا تستغرب إن أعطيت أحدهم عصاً يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه ، فشجّ بها رأسك !!)

إنه سائر على طريق الخير ويتوقع أن يكون هناك جاحدون، ومع هذا لا علاقة لهم بما يقدم، لأنه حينما يقدمه فإنه يقدمه لله وليس للناس.. فإياك أن يمنعنك جحد جاحد أو ناكر جميل من ترك فعل الخير.

وتذكر دوماً أن فعل الخير إنما هو لوجه الله الذي يجزي بالإحسان إحساناً.. قال الله تعالى : (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)

وقد نأى رسولنا الكريم ﷺ بأمته عن هذه الطباع المقززة ، التي لا تنسجم مع طبيعة المسلم فحثهم على الاعتراف بالجميل وعدم نكرانه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (من أُعطيَ عطاءً فوجد فليجْز به، ومن لم يجد فليثن فإن مَن أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلَّى بما لم يُعْطَهْ كان كلابس ثوبَي زور).

إنه الجحود.. لا يقابله جزاء إلا سخط الله. !

والإسلام يريد من أتباعه.. نفوساً نبيلة سامية تعترف بالفضل لأصحابه وتشكرهم على معروفهم، بعيدة كل البعد عن الجحود والنكران،..(فالجحود سم زعاف يسكبه الجاحد في كأس الحياة لنتجرعه رشفة بعد رشفة حتى يقضي على جماليات الحياة ويميت فينا كل معاني الصدق والثقة والتعاون والعطاء بسخاء، كم هو مؤلم أن يعيش الإنسان لذاته، فالجاحد شخص انتهازي وصولي، شخص معدوم الضمير والإحساس شخص نرجسي يرى في نفسه ما لا يراه في الآخرين، شخص يريد أن تُسَخّر له الدنيا بما فيها لأنه يرى أنه صاحب استحقاق في الحصول على كافة الخدمات دون اعتراف بالجميل والمعروف ، شخص مخادع يتقمص ويلبس ألف قناع وقناع لصالح مصالحه الذاتية ، شخص يقطف أجمل وأطيب زهور الشخصية المعطاءة دون رحمة أو تقدير لتلك الروح الطيبة التي جبلت على العطاء بسخاء لإسعاد الآخر ، جبلت على العطاء بالطيبة والحنان حتى ولو يكون على حساب راحتها)[١]

إن النفوس السوية المعتدلة تراها كريمة وفية، تقر بالفضل لأصحابه ، وتحمد صباح مساء من أسدى إليها معروفاً ، وترى جميله طوقاً حول رقبتها لا تنزعه أبداً..بل تراها تستمتع بذكر هذا الجميل فتتحاكى به ليل نهار، وتقص نبأه على القاصي والداني، لا تخجل من ذكره وتكراره، ولا يخجل صاحبها أن يقول أمام الناس : أكرمني فلان.. وأحسن إلى فلان.

لأنها نفوس جبلت على الوفاء، وتحلت بالنقاء. .

وصدق الشاعر اللبيب في قوله:

إن أنت أكرمت الكريم ملكته** وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وكأن هذا البيت قيل في الخارجي (عامر بن حطان) إذ يروي الإخباريون أن الحجاج لما ظفر به أمر بضرب عنقه وقام السياف على رأسه ، فقال الحجاج من شدة حنقه على عامر : اضرب عنق ابن الفاعلة ! فرفع عامر رأسه وقال للحجاج: بئس ما أدبك أهلك يا حجاج! أبعد الموت غاية أستبقيك لها؟! ما الذي آمنك أن أراجعك بمثل ما ابتدأتني به من السب؟! فاستحيا (الحجاج) ونكس رأسه.

ثم رفع رأسه فقال لعامر : أفيك موضع للصنيعة؟ قال: نعم، فدعا له بفرس بسرجه ونفقةٍ ، وقال: امض لشأنك فلما صار إلى قومه قالوا: عد لقتال الفاسق – يعنون الحجاج- واللهُ أطلقك لا هو فقال: هيهات! غل يداً مطلقها، واسترق رقبةً معتقها، ثم قال:

أأُقاتل الحجّاج عن سلطانه ** بيدٍ تقرّ بأنّها مولاته

---

[١] لما الجحود يا تلك النفوس ؟ د. سلمى الدوسري

إني إذاً لأخو الدناءة والذي ** عفّت على عرفانه جهلاته
ماذا أقول إذا وقفت موازياً ** في الصفّ واحتجّت له فعلاته
وتحدّث الأكفاء أنّ صنائعاً ** غرست لديّ فحنظلت نخلاته
أأقول جار عليّ، إني فيكم ** لأحقّ من جارت عليه ولاته
تالله لا كدت الأمير بآلةٍ ** وجوارحي وسلاحها آلاته[٢]

وفي حياته كثيراً ما عانى عميد الأدب العربي (طه حسين) من الجحود ومقابلة الإحسان بالجفاء والهجران والإساءة ..لقد كان الرجل خيراً محسناً كريماً لا يتأخر في مساعدة من حوله من معارفه وقاصديه، ولا يتوانى في تحقيق آمال أصحابه والسعي لقضاء حوائجهم..لكن الجحود الذي كان يلاقيه، لم يمنع من خصاله الطيبة الكريمة أن تستمر في منهجها وطريقها.. وكان من حوله يلومونه على إحسانه لمن لا يستحق وأنه يضع المعروف في غير أهله.. أما الذين لقي منهم هذا الجحود فما أكبرهم وما أكثرهم!

ولك أن تتعجب أن يكون منهم هؤلاء الرواد الكبار والشخصيات العلمية المرموقة، والذين نعرض مواقفهم معه حسب ما ذكره تلميذه الدكتور (محمد الدسوقي) في كتابه الشيق (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره) والتي لاحظت تكرارها في مواقف شتى ومع أناس كثيرين وكان منهم الدكتور (أحمد أمين) صاحب (ضحى الإسلام)

(حيث كان العميد عضواً بلجنة التأليف والترجمة والنشر، وكان (أحمد أمين) يلجأ إليه في حل مشكلات أبنائه في التعليم، وكان طه يعاونه قدر المستطاع ، حتى أنه استطاع أن يوفر لبعض أبنائه فرصة السفر للخارج للدراسة على حساب الدولة ، ولكن أحمد أمين مع ذلك تنكر له وانضم مع الدكتور السنهوري ضد طه حسين ، وكان يقول: من الغريب أني أحسنت إلى كليهما، وكنت أعمل على تحيق ما يطلبان مني ومكرا بي ، ولست أدري سبباً لهذا!

وأذكر يوماً في جلسة من جلسات المجمع أنه حدث خلاف بين الأعضاء فيمن يتولى الإشراف على المعجم الكبير ، فلهذا الإشراف مكافأة مقدارها ثلاثون جنيهاً شهرياً، ولما احتدم الخلاف ، وكان الدكتور (أحمد أمين) يصر على أن يعهد بالإشراف إليه ، وقفت وقلت: ما رأيكم فيمن يتولى الإشراف على هذا المعجم مجاناً ، واعترض الدكتور (أحمد أمين) على هذا، فقال له (لطفي السيد) وكان رئيساً للمجمع: هل تشك في قدرة الدكتور طه العلمية؟فرد الدكتور (أحمد أمين) بالنفي ولكنه أضاف : ولكن الدكتور طه بإعلان رغبته هذه يعلمنا دروساً في الأخلاق.)

أما السنهوري فقد ساعده (طه حسين) ولكنه كان ممن أساؤوا إليه، فقد كان النقراشي مع النحاس ثم انشق عليه وانضم السنهوري للنقراشي وخاض معه في السياسة حين عين وكيلا لوزارة المعارف مع النقراشي لكن السنهوري أخذ يكيد لي ويتآمر عليه وهو لا يدري..

وقال : إن نكران الجميل شيء فظيع ويبدو أنه مرض متفش في الدنيا ، ولكن هذا النكران لا يؤثر فيّ لدرجة أن يحول بيني وبين عمل الخير ما استطعت ، وهذا

---

[٢] إعتاب الكتاب لابن الأبار

يذكرني بمثل إسباني يقول: قال الرجل لصاحبه إن فلاناً يذكرك بسوء فرد عليه وقال : عجباً كيف يفعل وأنا لم أقدم له معروفاً قط.
ولك أن تتعجب أن (طه حسين) هو السبب المباشر لشهرة الكاتب الكبير (توفيق الحكيم) تلك الشهرة التي كان لابد للحكيم أن يحمل جميلها طول عمره ، حتى حدث ما حدث.!!
قال العميد : (كنت سبباً في شهرة الأستاذ (توفيق الحكيم)، وجذب الأنظار إليه واهتمام الناس به ، فقد كتبت عن مسرحيته (أهل الكهف) مقالاً أشرت فيه إلى أن هذه المسرحية عمل فريد وجديد في تاريخنا الأدبي ، وكنت قبل قراءة هذه المسرحية لا أعرف شيئاً عن الأستاذ الحكيم وقد أحضرها لي الدكتور محمد كامل حسين والأستاذ حسين محمود، وطلبا مني قراءتها ونقدها ، وقد أعجبت بالمسرحية وكاتبها.وبعد نشر هذه الكلمة بعث إلى الأستاذ الحكيم برقية شكر من دمنهور حيث كان يعمل في النيابة هناك ، وصمت برهة ثم قال:
ولكن الأستاذ الحكيم غضب مني لأني كتبت عن شهرزاد وقلت: إن الأستاذ توفيق في حاجة إلى مزيد من القراءة الفلسفية، فقد أرسل إلي خطاباً يشتمني فيه ويقول بأنه قرأ في الفلسفة أكثر مما قرأت، وأنه ليس في حاجة إلى نصائحي، ومن يومها نسي الأستاذ توفيق كل شيء ولا يجامل في أية مناسبة)
ولعل بعضنا يشخص الداء تشخيصا خاطئا حينما ، لا يعرف حقيقة هذا الذي يطعمه بالملعقة من فمه ثم يدور حوله ليطعنه في ظهره.. وهو تماًما ما فعله الكاتب (خالد القشطيني) حينما كتب يقول: (أنا منبهر بحضارة الغرب، كيف لا أنبهر؟! قبل أشهر قليلة، اكتشف الطبيب الإنجليزي أن حياتي معرضة لخطر جسيم، أجرى العملية، فتح صدري وأزال ضلوعي وأخرج القلب ووضعه في ثلاجة ثم أزال شريانا عاطلا فيه وجاء بشريان سليم انتزعه من رجلي ووضعه في مكانه وربط كل شيء وأعاد ضلوعي لمكانها وأغلق صدري، قام بكل ذلك وأنا نائم لا أشعر بشيء وخرجت من المستشفي ولم أدفع فلسا واحدا له. لولاه لكنت الآن تحت التراب نسيا منسيا، من اكتشف هذه العملية وطورها لفائدة كل البشر أينما كانوا.. الشيخ أبو قتادة أم أسامة بن لادن؟
عدت للبيت لأواصل عملي بفضل الكومبيوتر الذي يقوم لي بكل شيء الآن، لا يمر يوم إلا وأسمع عن إضافات تطوره وتزيد في قدراته.. من اخترعه وجاءني به.. صدام حسين أم القذافي؟ وكل ما بيدنا من طيارات وسيارات وكاميرات وتلفزيونات وراديوهات.. من اخترعها وصنعها وجهزنا بها؟
كانت أوبئة الطاعون والجدري والكوليرا تجتاح بلادنا وتفتك بالملايين منا.. من قضى عليها وخلصنا منها؟ أنا واحد ممن ذاقوا الرعب المريع من مرض السل، الشبح الذي كان يقض مضاجعنا.. من جاءنا بالدواء الرخيص للقضاء عليه؟ ومن يقوم الآن بهذه الجهود الجبارة للوصول لعلاج للسرطان؟ ليس بينهم طبيب واحد يساهم في هذا المجهود من بلادنا.
ومع ذلك لا ننفك نشتم الغرب ونحملهم كل مصائبنا التي هي من صنعنا، كل ما في العراق من مرافق حيوية.. بريد وبرق وسكك وموانئ وبرلمان أسسها الانتداب،

ولكن القوم لا ينفكون يشتمون الاستعمار، كل ما لدينا من ثروة يعود للنفط.. من اكتشفه واستخرجه وسوقه وأعطانا حصة من ثمنه؟ ولكنك تسمعهم: الاستعمار يسرق نفطنا، كان السفر في العراق مخاطرة عصيبة حتى تولى العقيد (لجمان) توطيد الأمن على الطرق، قتلوه وراحوا يتغنون بقتله، ولولا الطائرات الأميركية لما استطاعت ليبيا دحر القذافي، كافأهم الليبيون بقتل سفيرهم الذي كان يناصرهم! نحن قوم جحود لا نعترف بالفضل ونقطع اليد التي تمتد لمساعدتنا.)

ولا شك ان الكاتب يرى الصورة بعين واحدة ، أو حسب ما يحلو له أن يراها ، وأمام هذه الصورة الزاهية التي رسمها وأراد من وصفها أن يسمنا بالجحود.. هناك صورة أخرى أكثر سواداً وفزعاً لهذا الغرب الذي يطالبنا الكاتب أن نسجد له ما دام أنعم علينا بالمخترعات العصرية والتي كنا نحن السبب المباشر في نواتها وأصولها وبما عرفوا من حضارتنا وعلومها..وأقول للكاتب : من الذي استعمر البلاد وأهان العباد وسرق الثروات وبدد أحلام الشعوب وضيع أمنها واستقرارها وقتل ملايين البشر ؟! من الذي اخترع أمام ما ذكرت من الطب والجراحة والأجهزة النافعة آلات تفتك وتدمر وتزهق روح الناس من رصاص ومدافع ومجنزرات وطائرات ترمي بالحمم على رأس الإنسان ؟

من الذي اخترع القنبلة النووية ورمى بها على اليابان ؟ من الذي أهان كرامتنا واحتل أوطاننا ؟من الذي دبر المؤامرات وأوجد الفتن بين طوائف الوطن الواحد حتى لا ينهض أو يقوم؟

من الذي صدر لنا العري والإباحية والانحلال والإلحاد ليهدم أخلاقنا وقيمنا ؟ من الذي يقف في وجهنا كلما أرادنا أن ننهض ببلادنا وننعم بالديمقراطية وتظللنا الحرية ، فيغرقنا بالمحن والمشكلات التي لا نستطيع منها خلاصاً؟ أسئلة كثيرة تحتاج إلى جواب الكاتب قبل أن يتهمنا بالجحود.

حينما تضيع المروءة!

في المقطع الذي بث على الانترنت للناشطة (شيماء الصباغ) في وسط القاهرة أثناء مشاركتها في تظاهرة سلمية، لم تكن تفعل شيئاً فيها إلا أنها كانت تنادي بالحرية وتحمل الزهور وتعبر عن رأيها بالهتاف مرة وبلافتة تحملها مرة أخرى ، ثم قصدتها رصاصات الغدر فأردتها قتيلة..سارع إليها صديقها في محاولة منه لإنقاذها والهروب بها إلى مكان آمن يستطيع أن يسعفها فيه ..كان يهرول بها وهي تترنح على كتفه لا يدري أين يسير وإلى أين يتجه ، وفي ظل هذا المشهد المأسوي المؤلم، كان الناس على الناحية الأخرى وفي نفس اللقطات يسيرون حولهما بكل برود وفتور ، ومنهم من كان يجلس على القهوة يشاهد الموقف ولا يحرك ساكناً، ولا يرعوي لحجم المأساة ، ولا يسارع إلى النجدة أو تقديم أي شكل من أشكال المساعدة للفتاة المجروحة وصديقها الحائر..كانوا ينظرون إليهما ببلادة منقطعة النظير، وفي غيبوبة عن كل معاني الرحمة والإنسانية.

وهذه الروح التي ظهرت في هذه المشاهد التي تصور مصرع (شيماء الصباغ) استرعت انتباه الكثيرين ، ورصدوها ملفتين إلى انهيار المجتمع حينما تغيب منه المروءة ، ويظهر فيه هذا النوع من الناس الذين لا يبالون بأحد، ولا يهتمون

بمصاب، ولا ينجدون مستغيث، ويرفعون شعار دع الملك للمالك ..هؤلاء الناس العاديون الذين أصيبوا بفقدان النخوة واستشري فيهم داء اللامبلاة ويردد أحدهم قوله: (وأنا مالي) ..هؤلاء تحديداً حينما يظهرون في مجتمعاتهم ، فحدث ولا حرج عن ضياعها ونهايتها وانهيار ما فيها من مثل وقيم ورحيل أكيد لحقوق الانسان وكرامته..!

وياليتهم شخص واحد أو شخصين.. لقلنا ساعتها لعلهما مخمورين أو تائهين أو أنهما من القتلة أنفسهم ، ولكنهم كثير يضج بهم المكان يمينا ويساراً.

إنهم المواطنون العاديون الذين أعرضوا عن الفتاة المجروحة ، لأنها ذكرتهم بضعفهم وخذلانهم ومروءتهم الضائعة، هؤلاء المواطنون الذين صار الواحد منهم على استعداد لأن يقتل ويكْفُر ويَفْجُر من أجل لقمة العيش التي صارت إلهه ومعبوده في هذه الحياة، وصار هو عابدا لها حتى ماتت فيه معالم الحرية والنخوة والنجدة والإباء،هؤلاء هم بلاء الأوطان ورزية الشعوب الذين ينمو في ظلهم معنى الظلم، وتتعافي في ظلهم روح التسلط والاستبداد والقهر ..

وتحاول الكاتبة (ديانا مقلد) أن تعرض لمشهد مشابه لتقف بنا على أسباب الضياع في المجتمعات التي تُعاني من تسلط الحكام الفجرة والأنظمة الجائرة التي تسحق مجتمعاتها، وتجعل حياة مواطنيها في جحيم مستمر، بما تقدم عليه من سياسات ظالمة طاغية، وقرارات حمقاء عاتية فتقول : (مرت الذرى السبعين للمحارق التي نفذها النازيون ، وانكب الدارسون والباحثون على دراسة واحدة من أكبر جرائم التاريخ المعاصرة فوقفوا كثيراً أما حكاية أولائك المواطنين العاديين أسئلة كثيرة طرحتها جرائم النازية كان أحدها إلى أي حد يُعد الألمان العاديون مسؤولين عن جرائم ارتكبت باسمهم ، فهم لم يشاركوا في القتل الفعلي، لكنهم ساهموا بلا مبالاتهم وسلبيتهم..

حكايات هؤلاء العابرين والمواطنين العاديين تحمل في طياتها المعاني التي تساعدنا في فهم الأنظمة الشمولية ، فاللامبالون لم يسهموا مباشرة في أعمال السلطات الدامية، وهم ليسوا قتلة لكن الطاعة التي يكشفها سلوكهم وانعدام السؤال أو التشكيك يجعلنا نفهم كيف ينمو الاستبداد وكيف يتمكن من إغواء الجماهير..؟!

كان لأدولف هتلر حليف قوي غير مرئي ما كان لينجح من دونه ، حليفه كان العالم الذي اختار أن يصمت ، لقد بدأ هتلر جرائمه ببطء وصعد بحذر على مدى سنوات ليصل إلى ذروة الإبادة..

الباحث في اللاهوت (مارتن نايمولر) قال :حين طارد النازيون اليهود لم أكن يهودياً لذا لم تكن لي ردة فعل ، وحين لاحقوا الكاثوليك لم أكن كاثوليكياً لذا لم أتحرك..وحين استهدفوا العمال لم أكن عاملاً فلم أقف معهم ..أما حين لاحقوا رجال الدين البرتستانت تحركت وتفاعلت ووقفت لكن حينها كان الوقت قد تأخر ، حينها لم يكن هناك أحد ليدافع عن أحد.)[1]

لقد تبرأ ديننا من هذه النفس الذليلة الخانعة التي تنحني لكل ظالم جبار حتى ينفذ مراده في رقابهم، وحث أتباعه على النجدة والشجاعة والنبل والمروءة والصدع

---

[1] من مقال لديانا مقلد - صحيفة الشرق الأوسط - عدد [١٣٢١٥]

بالحق في وجه الظلمة والطغاة ورفض الظلم بكل أشكاله وألوانه والوقوف بقوة وصلابة أمام كل ظالم متجبر فقال ﷺ:
(إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)[٢]
وقال: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)[٣]
وقال بعض علمائنا : (الساكت عن الحق شيطان أخرس، والناطق بالباطل شيطان ناطق)
في حواري مع الأستاذ (ضو التريكي أبو النور) رئيس (المركز الإسلامي للثقافة والإندماج) بمدريد أخبرني: بأن الأسلوب والمعاملة من متطلبات الدعوة إلى الإسلام في المجتمعات الغربية ، ففي كثير من الأحيان لا نحتاج إلى محاضرات ولكننا نحتاج إلى معاملة وخلق جيد نمارسه في المجتمع ليقبل على الإسلام بسببه، وقد حدث معي موقف بسيط جداً أذكره لك، فقد ركبت الحافلة يوماً ووجدت مكاناً خالياً فجلست فيه، وفي المحطة التالية صعدت امرأة ومعها طفل يبدو عليه الإعياء والتعب الشديد فجلست أمه، أما هو فجلس على الأرض لأنه لم يكن هناك مكاناً خالياً ، وإشفاقا عليه قمت وتركت له مكاني ، وبقيت واقفاً حتى نزل شخص من الخلف، فذهبت وجلست مكانه..وتفاجأت برجل يجلس بجواري كان يتابع المشهد من بدايته ، سألني وقال لي : ألم تكن حين قمت للصبي تريد النزول من الحافلة ؟
فقلت له :لا.. فتعجب ثم سألني مرة أخرى هذا يعني أنك قمت لتترك مكانك للصبي؟
فقلت له: نعم ثم أعاد علي السؤال ثلاث أو أربع مرات ، وهو يحسب أني لم أفعل ما فعلت رحمة بالصبي المريض ، فهو مندهش أن يصدر مثل هذا الموقف الأخلاقي من مسلم وهم بطبيعة الحال يعرفوننا من خلقتنا ..
لقد كان الرجل منبهراً وكأنه وقف على كشف إنساني أو نظرية جديدة من نظريات الأخلاق والفضيلة..
وهذا التصور السلبي عن المسلمين ناتج عن خلفية سيئة تسبب فيها الإعلام الغربي وبعض تصرفات المقيمين الأول من الجالية المسلمة ، وقد وجدت هذه الحادثة فرصة لتكون مدخلا إلى هذا الرجل في حديثي إليه عن الإسلام ، فقلت له : لا تستغرب يا سيدي فديننا ونبينا ﷺ يأمرنا بهذا ويقول : ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ..فالأخلاق ثم الأخلاق هي الطريق الأمثل للدعوة وتوضح حقيقة الإسلام أمام ما يواجهه من حملات التشويه..
وهذا الموقف الشهم الذي قدمه الأستاذ (التريكي) لا شك أنه غير من الصورة المستقرة في ذهن الراكب عن الإسلام والمسلمين ، لقد شاهد الراكب المراقب موقفاً مفعماً بالنخوة والرجولة والإنسانية العالية في زمن ومجتمع تشبع بالنفعية والمادية وإيثار الذات ، فلم يكن من بين الركاب من شعر بمحنة الصبي غير صديقنا المسلم..ولقد كانت الدهشة الكبرى من مُشاهد ليس طرفاً في الموقف ، ومثل هذه

---

[٢] رواه أبو داوود والترمذي وابن ماجة وأحمد
[٣] التمهيد لابن عبد البر والأماني المطلقة لابن حجر

المواقف الإنسانية تسهم في تكوين انطباع قوي مشرق عن أخلاق الإسلام والمسلمين ، يؤهل هذه المجتمعات الغربية للقبول به والترحيب بوجوده.
والحق أن المروءة في هذا الزمان ، صارت شيئاً نادراً ولا تصدر إلا عن شخص صاحب رسالة أو مؤمن بقيمة أو لديه كما يقولون أصل وتربية..ولقد عانت الكاتبة الأديبة (هالة القحطاني) من المروءة المعدومة في هذا الزمان وهي تقص حادثة مرت بها فتقول:
(منذ أربع سنوات، وفي ساعة الذروة من الصباح الباكر، وقت خروج الموظفين، والطلاب إلى أعمالهم، ومدارسهم، توقفت سيارة بشكل فجائي على الطريق السريع الحيوي، لتصطدم تباعاً تسع سيارات، الواحدة تلو الأخرى، في ارتطام دوَّى صوته مثل طلقات، ليتوقف بعدها السير على الطريق بأكمله، سادت لحظة جمود، وصمت، ثم تعالت أصوات الأطفال في عدد من السيارات، كنت من ضمنهم في السيارة السادسة مع ولدي،حين استوعب الجميع الأمر، خرج من كل سيارة سائقها ليطمئن على مَنْ خلفه، ومَنْ أمامه، ذُعر ابني، وأخذ يبكي من هول الصدمة مثل أي طفل، ومثل أي أم أيضاً تمالكت نفسي، وأخذت أتفحصه، وأطمئنه حتى شتَّت هدوئي عدد من الضباع، التفوا حول السيارة، يتنقل الواحد منهم تلو الآخر من النوافذ كمَنْ يبحث عن فريسة ليلتقطها. لم أشعر بألم الصدمة على قدر ما شعرت بألم مخيف من نوع آخر، وكأن السيارة سقطت من على جبل في وادٍ سحيق، وتُركت للذئاب حين ظهر عدد من الجوالات توثق الحادث، وكأنه حدث نادر يستحق التصوير..أدخل عدد منهم برأسه من النافذة (يحوقل)، ويلتقط صورة (على السريع) قبل أن ينتقل إلى السيارة التي أمامي، ويفعل مثلما فعل، وهكذا دواليك، وعدد آخر ينقل الحدث بالفيديو، صوت وصورة، لتهون بكل سهولة مصائب هؤلاء الناس في أنفسهم، مع أن الوضع برمته كان مأساوياً للغاية، ولا يهون حتى على الشياطين!
تحوَّل الأمر مع الوقت إلى كارثة أخلاقية، يمارس فيها الشخص بكل وقاحة التصوير ليحصل على السبق في نشر أعراض الناس، ومعاناتهم، ودمائهم للملأ، دون حياء، أو مروءة! ومع ذلك حين تسألهم الآن فإنك تجد مَنْ يتشنج ليبرر تصرفه بأنه يصور من أجل أن يكشف قصور وتأخر الجهات المسؤولة، سواء كان الإسعاف أو الدفاع المدني، دون أن يعترف بأنه أحد أسباب إعاقتهم عن الوصول..كنتومازلت، ضد تصوير لحظات الألم والموت، حتى لو كانت لقطات خاطفة في نشرات الأخبار، لأن الألم ليس من الذكريات الجميلة!) [١]
وفي الزمن القديم كانت المروءة خلقاً متفشياً بين الناس ، ومسارعة الناس لخدمة غيرهم والسعي على حاجتهم أمرا طبع عليه أغلب المجتمع الذي كان سليماً معافاً ينأون به عن هذه الأمراض ويحافظون على سموه وخلقه فمما يروى أن رجلا صالحا كان يمتطي فرسه في الصحراء ، فإذا به يبصر شخصا جالسا على الرمال الساخنة يشكو العطش ويقترب من الهلاك والموت ، فدنا منه الرجل الصالح وسقاه، واهتم بحاله وحاجته، فطلب منه الرجل الضال أن يركب خلفه على الفرس حتى يبلغ

[١] صحيفة الشرق السعودية من مقال لهالة القحطاني العدد رقم (١٢٠٧)

مكانا مأهولا،فقال له الرجل الصالح : لا بل تركب أنت وأسير أنا، فلقد اقتربنا من العمار، وأنت بحاجة إلى راحة كي تسترد باقي عافيتك .
وما إن ركب الرجل على الفرس واستقام عليه وملك زمامه، إلا وأطلق له العنان مبتعدا عن الرجل الصالح، الذي وقف مندهشا مما يحدث ، وبعد أن وعى الرجل أن الشخص الضال ما هو إلا لص، تحايل عليه حتى سرق فرسه ، ناداه متوسلا أن يقف ليسمع منه كلمة واحدة ، جرى وراءه صارخا : قف ناشدتك الله والرحم، الفرس لك ولكن اسمع مني كلمة واحدة !، فتوقف اللص على مسافة تضمن له مأمنا من أن يلحق به الرجل وقال له : قل ما تريد ..فقال له:بالله عليك لا تحدث الناس بما فعلت، كي لا تضيع المروءة بين الناس..!
وعلى قدر ما يكون غياب المروءة شيئاً مفزعاً ، فإن حدوثها وحصولها في حياتنا يسر النفس ويشعر المرء بالغبطة، وأن الدنيا مازالت بخير، وأن هناك مساحة للأمان والبر والخير وهذا نفس الشعور الذي تولد في نفس هذا القاضي الذي التقى بالأستاذ (عمر التلمساني) وقص عليه هذه القصة التي لولا روايتها للأستاذ عمر لطواها النسيان وما عرف بها أحد..
أخبرني قاض انتقل إلى رحمة الله تعالى، لما عرف أنني من الإخوان المسلمين، أن معرفته بحسن البنا وتقديره له ترجع إلى موقف طريف، عرفته من تصرفه فيه أنه رجل شجاع نبيل ذو مروءة وذو عاطفة وانه صاحب دعوة حقاً، يقول القاضي: كنت في بلدتي، وفي عودتي إلى القاهرة في وقت متأخر في سيارتي ومعي زوجتي فرغ البنزين من السيارة.. فتوقفت على الطريق الزراعي في مكان لم أر على مقربة منه قرية ولا ضيعة وكان الظلام حالكاً ورهبة السطو تسيطر على مشاعري..
وكلما مرت سيارة أشرت لها بالوقوف ولكن أية سيارة لم تستجب وكانوا معذورين فالوقت متأخر، والمكان منقطع عن العمران وهوية الذي يستوقف السيارة غير معروفة والحذر في مثل هذا الموقف أولى وأجدر وأخذت السيارات تمر واحدة بعد الأخرى على فترات منتظمة تدعو إلى القلق، وأخذت الدقائق تمر كذلك في بطء يثقل وقعه على الأعصاب، وبعد أن انتصف الليل وأيقنت أننى سأبيت أنا وزوجتي حيث كنا حتى الصباح، وبعد أن يئست من استجابة أي سيارة لإشارتي قلت: فلتكن الإشارة الأخيرة لأية سيارة تأتى، وحصل ما تمنيت، فوقفت سيارة ونزل منها رجل يرتدى الزى الأفرنكي، ملتح، توحي ملامحه بالاطمئنان الكامل وتحقق الأمل.. وتقدم منى في أدب محيياً وسألني هل هناك ما أستطيع أن أفعله.؟ قلت: البنزين انتهى، وكانت السيارات في ذلك الحين..ما تزال تستعمل البوق (النفير) فخلع الكاوتش الذي في بوق سيارته، ويملأه منها ويفرغه في تانك سيارتي، حتى قدرت أن هذا يكفي وظننت أنه وقد قدم هذه المكرمة، وفي هذا الموقف الحرج سيتركني وينطلق بسيارته، ولكنه طلب متلطفاً أن أسير أولاً، لعل في سيارتي شيئاً غير فراغ البنزين، وكان يقوم بهذا العمل كله بنفسه، ورفيقه في سيارته، يرقب كالصقر الحذر، وقبل أن ينصرف سألته من هو فقال: (حسن البنا) من الإخوان المسلمين..فعرفت أنه مرشد الجماعة، ومن وقتها عرفت الرجل، وما توفرت فيه من صفات تُوحي بالثقة الكاملة فيه.

لا أعرف لماذا ارتبطت كل أحاديث المروءة بوسائل المواصلات وحوادث السيارات والرحلات..ربما لأن السفر تظهر فيه المعادن والنفوس أكثر مما تظهر في غيرها، أو يفقد فيه الإنسان بعض الراحة والمتاع ويبحث عمن يساعده ويعاونه؟!

لقد كان هناك شيء معروف مألوف وهو ما يسمى بأخلاق القرية، فهل يا ترى يبصر الريفيون شيئا منها اليوم؟ وكم أسفت على هذه الشهامة التي تبخرت في الهواء وصارت في قرانا هباءاً منثوراً ، حينما اقتحمت الحياة الحديثة بمظاهرها وبهرجها حياة مواطنيها الطيبين، وصارت موجة عتية من التقليد الأعمى الذي تعاظم على حساب كثير من المثل والقيم، ولكي يتعرف أجيالنا اليوم على حقيقة القرية الريفية المصرية بصورتها القديمة فلنتأمل ما صوره (القرضاوي) في مذكراته عن حقيقتها التي ما عاد منها اليوم إلا النذر القليل فيقول: (كان أهالي القرية مترابطين فيما بينهم، متضامنين في السراء والضراء، في الأفراح وفي الأحزان، ففي الأعراس والأفراح نراهم يساعد بعضهم بعضا عن طريق ما يسمى (النقوط) يدفعونه لأهل العروس، على أن يرد هؤلاء إليهم مثله أو خيرا منه عندما يزوج أحدهم ابنه أو ابنته، وفي الأحزان يراعي بعضهم مشاعر بعض، فإذا كان عندهم عرس أجلوه، وإذا اضطروا إلى تنجيزه في مدة قريبة، أقاموه بغير ضجة، حتى إنهم يمتنعون عن بعض الأكلات المعينة، يعتبرونها من أكلات الأفراح مثل الكسكسي والرقاق (البريك) ونحوها.

وإذا حدث حريق في أحد المنازل، بقضاء وقدر أو بفعل فاعل ، سارع أهل القرية إلى إطفائه بقوة وجدارة، وكثيرا ما يكون ذلك بعد منتصف الليل، فيهب الناس من نومهم، ويطيرون طيرا إلى موضع الخطر، يكادون يقتحمون النار ولا يبالون. وهذا مما عرف به أهل القرية من الهمة العالية والنجدة.)

نصرة المظلوم

ارفض الظلم مهما كانت الموانع، تبرأ منه، قاوم أصحابه..إياك أن تقبل أن يقع الظلم بأرض أنت فيها.. واس المظلومين، امض معهم في إنصافهم ممن ظلمهم، أثبت لهم حقوقهم، ليثبت الله قدميك يوم القيامة على الصراط.

يقول ﷺ: (من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه، ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزول الأقدام) الترغيب والترهيب

واحذر اللعنة ودروبها فقد قال ﷺ: (لا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه).؟

وعن (جابر بن عبد الله) رضي الله عنهما قال: لما رجعت مهاجرة الحبشة عام الفتح إلى رسول الله ﷺ قال: (ألا تحدثونى بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟: قالوا بلى يا سول الله، بينما نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها.

فلما ارتفعت التفتت إليه وقالت: سوف تعلم يا غدر، إذا وضع الله الكرسي وجمع الله الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، سوف تعلم كيف